

نشأة المقامة

في الأدب العربي



نشأة المقسمة

في الأدب العربي

الدكتور حسن عباس



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للدكتور محمد مصطفى، هدارة

« لقد استطاعت المقامة ان تلج بنا مجتمعات الناس ، وجعلتنا نعيشهم معايشة حقيقية حيث كانوا ، وجعلتنا نشاهدهم في دورهم وأنديتهم ، ودخلت بنا إلى عوالمهم في الأسواق والفنادق والحانات والمساجد ، بل نقلتنا إلى قصور الحكام ، وساحات القضاة ، وأندية الأدباء ، وخلقات الوعاظ . وتفاوتت شخوصها بين ملوك وولاة ، وبناء وقضاة ووعاظ ، وتخطت هؤلاء جميعا إلى اللصوص والشحاذين والقحباب والنخاسين ، وفي هذا كله كانت تصور لنا هموم هؤلاء القوم الفكرية والمعاشية ، وتعرض علينا من خلال حوادثها مظاهر حضارتهم ، وأسباب معاشهم ، وطرائق تعاملهم ، ومناحي الضعف والقوة في أخلاقهم . »

تلك هي المقامة التي صدرت في السنوات الأخيرة دراسات تتناولها في المشرق و المغرب ، وتحاول استكناه طبيعة هذا الفن العربي المتميز الذي يعد - بلا شك - نوعا أدبيا فريدا قد يمت إلى القصة بصلة ، ولكن تبقى له خصائصه التي تفرده عن الأنواع الأدبية الأخرى .

بيد أن كل الدراسات التى تناولت المقامة ، كانت بحق - كما وصفها حسن عبدالعال عباس . « فى جملتها غير مقنعة ، وأغلبها محاولات سريعة للتعريف بأعلام هذا الفن » ، وكانت تنقصها عناصر مهمة فى البحث العلمى الجاد ، أهمها دقة الاستقصاء ، والشمول ، والعمق ، واستكشاف المجهول . وهذه العناصر الأربعة الرئيسية هى نفسها التى عملها حسن عبدالعال وكده فى بحثه الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه ، والذى يضعه الآن بين أيدي جمهور القراء فى قسمين ، تخفيفاً عليهم ، بعد أن استتبعت غزارة المادة التى جمعها ضخامة البحث ، مع خلوه من أى فضول يجب أصحاب البحوث الجامعية عادة أن يتكثروا به مباهاة وسمعة .

لقد اختار الباحث القرن السادس حداً زمنياً ليدرس فن المقامة فيه ، وهو عصر شديد الخصوبة ، لافى إنتاج المقامات فحسب ، بل فى إبداع كثير من الفنون الأدبية والموسوعات العلمية . ونرى الباحث قبل أن يتبأً لولوج باحات القرن السادس ، يتطلع إلى الماضى ليرصد تطور فن المقامة فى مرحلة الريادة التى يبرز فيها بديع الزمان الهمداني بشموخه وأصالته فى القرن الرابع الهجرى ، ثم يعقبه فى المشرق والمغرب مبدعون ، تجاهل الباحثون أو جهلوا مقاماتهم مثل أبى العلاء المعرى ، وأبى الهيثم الأصفهاني ، ومحمد بن الحسن الطوبى ، بجانب المعروفين مثل ابن نايقا ، وابن شهيد ، وابن شرف القيروانى . ولعل فى إبراز مثل هؤلاء المبدعين المجهولين فى القرن الخامس ما يوضح أحد العناصر فى بحثه ، بل فى منهجه الذى يأخذ به نفسه ، منذ كتب بحثه الأول عن أسامة بن مغلذ وحقق كتابه (العصا) .

وتبدو دقة الاستقصاء فى كثير من الظواهر ، منها تتبعه بالنقد العلمى الموضوعى مقامات ابن الجوزى ، ونسبة كتاب الذخائر والتحف للقاضى الرشيد ، وعشرات المواقف الماثلة . ومنها حديثه الدقيق عن مقامات ابن ماري ومقامات الحصكفى .

أما صفة الشمول فتتبدى فى عدم اقتصار حسن عبدالعال على المشرق وحده فى بحثه عن المقامات ، ولكنه توغل فى المغرب العربى بحثاً عن مقاماته الكثيرة التى يكتنفها الغموض بالنسبة للبحث العلمى ، ورفع النقاب عن أكثر من عشرين مبدعاً فى فن المقامات من خلال تنقيبه الدعوى فى مصادر المغرب العربى .

وهو لم يقف عند حدود البحث التاريخي عن المقامات ، ولا عند حدود استخراج نصوصها وتقديم ما وجدته منها محققا ، بل انطلق باتجاهه الشمولى يدرس مضامين المقامات ، ويرصد اتجاهاتها التعليمية والوعظية والترفيهية والنقدية والدينية ، ثم تغور في أعماقها يستخرج عناصر أشكالها الفنية ، ويحلل الشخصيات المقامية ، وعناصر الحوار والحبكة في بنائها القصصى والدرامى ، ثم نراه يتجه إلى دراسة سلاقة المقامة بالأنواع الأدبية المختلفة ، وتحليل أسلوبها ، ودراسة عناصر الحلى البديعية فيه ، وأنواع الصنعة الفنية المتعددة الألوان والقدرات .

وأما استكشافه المجهول فيتبدى في كشفه عن المقامة الحصيرية للقاضى الرشيد ، وتتبعه الدقيق أخبار المقامات الضائعة ، كما أنه كشف لأول مرة عن نص المقامة الفرطية التى أفاض الدراسون في الحديث عنها دون أن يطلعوا على نصها ، فخلطوا بينها وبين المقامة البنسية لابن خاقان .

وأما صفة العمق فهى شاملة كل ما يتناوله الباحث من نقاط ، بحيث تعد ركيزة منهجه العلمى ، فهو لا يرى قط الشئ من ظاهره ، ولا يكتفى بما يقوله السابقون أو يراه الباحثون ، بل يتحرى الدقة الكاملة فى كل ما يقرؤه أو يكتبه ، ولا تطمئن نفسه حتى يصل إلى وجه الحق ، أو إلى ما يراه صوابا ، فتراه يتحرى قول أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عن مقامات السرقسطى إن راويها المندرين همام وبطلها السائب بن تمام فثبت أن الصحيح هو أن بطل المقامات السرقسطية هو ابن حبيب السدوسي ، وراويها السائب بن تمام ، أما المندرين همام فهو راوية ثانوى يظهر حيناً ويختفى أحيانا ، وينتهى دوره عند ذكر اسمه فى أول المقامة .

وهو لا يجد حرجا فى مناقشة أستاذه الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى فى دراسته مقامات ابن نافيس ، أو فى مناقشة الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة ، أو الأستاذ الدكتور إحياء عباس بل العديد من الباحثين المعاصرين ، طلبا للحكم الصائب على العمل الأدبى عن طريق تعمقه وإحسان تحليله وفهمه .

وقد ثبت الدكتور حسن عبد العال عباس قدمه فى ميدان البحث العلمى منذ أطلع جمهور القراء على عمله الدقيق فى تحقيق كتاب العصا ، ودراسته الشاملة العميقة

عن أسامة بن منقذ ، وهو الآن يضيف بعمله الجديد في تأريخه مقامات القرن السادس
ودراستها مآثرة علمية جديرة بالثناء والتقدير، ليستمد منها زادا يعينه على المضى في
طريقه باحثا جادا ، لا يتهاون في حق العلم ، ولا يقصر في بذل جهد للوصول إلى
الحقيقة ، والله من وراء القصد والسبيل ،

دكتور محمد مصطفى هدارة

أستاذ الأدب العربى ورئيس قسم اللغة العربية
بكليتى الآداب بجامعة الإسكندرية وطنطا
وعميد كلية الآداب بجامعة طنطا

توطئة

أستطيع أن أزعم أنني لم أختَر موضوع المقامة لنفسى بقدر ما اختارنى هذا الموضوع لنفسه ، فحين فرغت من رسالتى التى تقدمت بها لنيل درجة الماجستير فى الآداب من جامعة الإسكندرية (١) كان أسامة بن منقذ قد أتاح لى بحياته المديدة الحافلة وآثاره العديدة الضاربة فى فنون الشعر والأدب والنقد والبلاغة والتاريخ وغيرها فرصة كبيرة للاقترب من موضوعات دقيقة يصلح أكثرها موضوعا لدرجة الدكتوراه ، بل كانت آثاره العديدة التى أضع فى خطتى أن أعود إليها فرادى لتعميق درسها أو نشرها صالحة لذلك ، ومن بينها كتابه البديع فى نقد الشعر الذى أظهرت دراستى مدى الجناية عليه سواء فى نشر نصه أم فى درسه وفهمه ، وديوان شعره الذى نشر دون تحقيق علمى دقيق وأتيح لى أن أقف على نسخة خطية نادرة منه ترجع إلى عهد المؤلف ، وربما كانت بخطه الشخصى .

وكان الرأى أن هذا الديوان أولى آثار أسامة بالعناية وأن على أن أأخذ من تحقيقه ودرسه موضوعا لرسالة الدكتوراه ، ولكنى كنت أرى رأيا آخر ، كنت قد دربت على الكتابة عن شخصية أدبية متنوعة المعارف ، كما كان العمل الشاق الذى صادفته فى تحقيق كتاب العصا قد أكسبنى القدرة على التصدى لتحقيق التراث ، وكانت وعورته الشديدة كفيلة بجعل التصدى لسواه رحلة يسيرة هينة فإن كنت طامحا بعد هذا إلى آفاق جديدة من علم أستاذى وخبراته فإن على أن أغلخ لحين عن درس الشخصية وتحقيق التراث لأقتحم فى ظل إشرافه ميدانا جديدا هو ميدان درس الظاهرة الأدبية ، آملا أن يتاح لى إبراز عمل يقترب من عمله فى مشكلة السرقات أو اتجاهات الشعر ، فقد أغلق بعمله فيها باب الاجتهاد فى مضمارها أو كاد .

ولم تتح لى قوانين الجامعة التسجيل مع أستاذى فى عاجل الحال ، إذ كانت جهوده العلمية معارة لجامعة الرياض ، وفى انتظار أوبته تحدثت رسائلنا عن

(١) نوقشت فى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٦ ، وكان موضوعها : « أسامة بن منقذ ، حياته وآثاره ، مع تحقيق كتاب العصا » أشرف عليها أستاذى الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وشارك فى الحكم عليها أستاذى الجليلان الدكتور طه الحاجرى والدكتور حسن نصار ، ونالت تقدير ممتاز بإجماع الآراء ، وقد مشرت بعناية الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وصدر كتاب العصا سنة ١٩٧٨ وأعيد نشره سنة ١٩٨١ ، كما نشر القسم الأول من الدراسة سنة ١٩٨٠ ، والثانى

موضوعات عديدة ، أفضت إلى اختيار موضوع « النثر الفني في القرن السادس »
الذى قيد في أوائل اغسطس سنة ١٩٧٧ ، وبعد عام أو يزيد من الجمل والقراءة
حول الموضوع ، تجمع لدى ركام هائل من المادة المجموعة ، ومن خلال هذا
الركام كانت أسئلة كثيرة عن « المقامات » تطل برأسها وتحوج الإجابة عنها إلى
دراسة مستقلة متأنية ، ومن هنا اقتضت على درس « فن المقامات في القرن
السادس » .

وليست هذه الدراسة أول ما يكتب عن فن المقامات بعامة ، ولن تكون آخرها
يكتب عنه ، فلقد سبقها دراسات وبحوث ، إن لم تكن في جملتها مقنعة ، فقد كان
بعضها صادقا .

ويمكن أن نقسم هذه الدراسات إلى أربعة أقسام رئيسة على النسق التالى :

١ - كتب عامة تناولت المقامة في جانب من درسها لكونها فنا أدبيا لا يصح
إغفاله أو تجاوزه ، كما نرى في كتب التاريخ الأدبي ، وما يجرى مجراها .

ونذكر هنا بوجه خاص كتاب الأدب في ظل بنى بويه ، وقد حاول مؤلفه أن
يربط بين ظاهرة الفاقة ومقامات البديع ، وكتاب الدكتور إحسان عباس الذى
عنى بدرس تاريخ الأدب الأندلسى في عصر الطوائف والمرابطين وأفرد جانبا منه
لدرس المقامات الأندلسية ، فأبرز الكثير من نصوصها ، وتعرض لدرسها لأول مرة
فوقع في أسر آرائه كل من تناولوا المقامات الأندلسية من بعده .

ويمكن أن نضيف إلى هذا النوع تلك الدراسات التى عالجت موضوعات تقع
قريبا من الفن المقامى أو تشمله ، ككتاب النثر الفني في القرن الرابع للدكتور
زكى مبارك ، وكتاب الفصحة في الأدب العربى القديم لعبد الملك مرتاض ،
والأدب القصصى عند العرب لموسى سليمان ، الذى سلك المقامة في باب
القصص اللغوى .

ولاشك في أن هذه الكتب في جملتها لم تكن بالمقامات عناية خاصة ، وإنما
كانت في الغالب تشير إشارات سريعة إلى الأعمال المقامية البارزة ، ولا تكاد
تتعدى البديع إلا إلى الحريرى .

(٢) كتب درست المقامة من خلال عنايتها بأصحاب المقامات كما فعل

مارون عبود والدكتور مصطفى الشكعة حين درسا مقامات البديع من خلال درسها لبديع الزمان ، وكما فعل مرتضى آية الله الشيرازي حين درس الزمخشري فتحدث عن مقاماته .

وكما نرى فقد فاز البديع بأوفر حظ من هذه الدراسات ، التي لا تغلو من إعجاب بالرجل الذي عقد الكتاب حول آثاره .

﴿ح﴾ كتب وضعت أساسا للتعريف بفن المقامة :

ولعل أولها كتاب الرسائل والمقامات لعمر فروخ الذي صدر في بيروت سنة ١٩٤٢ ، وهو كتيب صغير لا تحتل المقامة فيه عشرين صفحة ، ولعله كان مفيدا في وقته ، ولكن أفكاره المدرسية القرية صارت ممالا يعقد من أجله كتاب .

وفي العام التالي — ١٩٤٣ — جمع الدكتور جميل سلطان مجموعة من محاضراته الجمعية وأحاديثه الإذاعية في كتاب سماه « في القصة والمقامة » .

ثم وضع الدكتور شوقي ضيف كتابه الصغير عن المقامة الذي أخرجه دار المعارف في سلسلة فنون الأدب العربي ، وهي سلسلة وضعت لتعريف عامة القراء بفنون الأدب ، وهذا الكتاب الذي طبع مرارا يتميز من سابقه بأنه قصر مباحثه على المقامة ، وإن لم يختلف عنها في كونه حاول بسط جناحيه على فن المقامة منذ نشأته إلى عصرنا الحديث ، فقال إلى التعريف الموجز أحيانا وإلى القفزات السريعة في أحيان أخرى ، حتى نجده قد أجمل الحديث عن مقامات القرن السادس بعد الحري في صحيفة واحدة .

ومن هذه الطائفة كتاب لم يتسن لي الاطلاع عليه وهو « فن المقامات في الأدب العربي » لعبد الملك مرتاض ، الذي صدر في الجزائر ، وهذه الدراسة ماثلة للطبع (٢) وقد أرسلت إلى الاستاذ اسطبولي رباح نائب رئيس جامعة تيزي وزو الذي شرفت ببلقائه في مصر في العام الماضي آملا الوقوف على الجديد عند عبد الملك مرتاض ، ومهما يكن من أمر فقد وقفت على دراسته عن القصة في الأدب العربي القديم وقد أفرد جانبا كبيرا منها لدرس المقامات .

(٢) أنشأ إلى صدره في الحرائر بين الكتب الجديدة ، مجلة الفصل السعدي في ١٤٠١ هـ .

١٠٢١ دراسات جامعية :

لقد نشطت في الآونة الأخيرة الدراسات الجامعية حول المقامات. ومن هذه الدراسات رسائل لاتكاد تختلف عن الدراسات السابقة ، كما نرى في رسالة يوسف نور عوض « فن المقامات بين المشرق والمغرب » التي قدمت لجامعة القاهرة ، ثم خرجت في كتاب سنة ١٩٧٩ وحاول الباحث فيها أن يعرض للفن المقامي من خلال حديث سريع عن أصحابه ، وهي لا تختلف كثيرا عن رسالة الدكتور محمد رشدي حسن الذي اختار تطور فن المقامة موضوعا لرسالة الدكتوراه وحاول فيها أن يتحدث عن الفن المقامي منذ نشأته إلى عصرنا الحديث .

غير أن بعض هذه الدراسات قد اختار لنفسه موضوعا محددا أو إقليما بعينه كما نرى في دراسة عبد الرؤوف الخانجي الذي جعلها « درسا لفن المقامة والرسالة في الاندلس » وإن كنا نرى أنه قد وزع جهده حين لم يقصر همه على درس المقامة وحدها .

ومن هذه الدراسات أيضا أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة للدكتور محمد رشدي حسن وهي في أصلها رسالته الجامعية الأولى ، وقد تعرض في أولها للمقامة العربية تعرضا سريعا ، ثم توقف عند المقامات المتأخرة كمقامات القواس والبربر والسيوطي ، وحاول أن يظهر ملامح تأثيرها في بعض رواد الكتابة القصصية في مصر .

ودراسة الزميل دياب فارس ديب عن لغة الحريري في المقامات ، وتكمن قيمتها الحقيقية في أنها تصدت للنص وواجهته مباشرة .

ومما تقدم نرى أن الجهود التي بذلت لدرس الفن المقامي كانت في جملتها غير مقنعة وأغلبها محاولات سريعة للتعريف بأعلام هذا الفن ، فإن لم يكن لهذه الدراسة أن تدعى الريادة في الكتابة عن المقامة ، فإن لها أن تدعى أنها أول دراسة تتصدى للفن المقامي في فترة من أزهى فتراته هي القرن السادس الهجري .

وربما كان الإقدام على هذه الدراسة الآن مبكرا ومحفوفا بالمخاطر فأكثر تراثنا في هذا الفن العربي الأصيل مازال مطمورا أو ضائعا ، ولكنه من هذه الوجهة أيضا يحتفظ لنفسه بلون من الريادة .

وقد أتيح لهذه الدراسة أن تقف على نصوص مقامية لم تتح لغيرها ، فتناولتها بالدرس والتحليل حين اكتفت دراسات سابقة بالإشارة إليها أو أصدرت عليها أحكاما ظنية خاطئة . ومن هذه الأعمال مقامات ابن الجوزي التي حققها على جميل مهنا ونال بها درجة دكتور من جامعة الأزهر سنة ١٩٧٦ ، وإن كنا قد عاينا فيها وجوها من التصحيف والتحريف ، كما رأينا أن المحقق قد ادعى لنفسه الشروح التي وضعها المؤلف لمقاماته .

ومقامات السرقسطي التي حققها الزميل بدر احمد ضيف بإشراف أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة ونال بها درجة دكتور في الآداب من جامعة الاسكندرية .

ولكن الرحلة لم تكن دائما سهلة ميسرة فقد حاولنا ما استطعنا الوقوف على الأصول الخطية للمقامات التي لم يتح لها أن تنشر ، و يكفي هنا أن نشير الى مقامات ابن ماري التي أشار بروكلمان وجرجي زيدان إلى وجود مخطوطتها بين مقتنيات مكتبة فيينا ، وأرسلنا في طلبها فإذا هي نسخة رائقة من مقامات الزمخشري ، وأرسلنا إلى مكتبة بغداد فلم نجب إلى مطلبنا ، وأخيرا استطعنا بفضل الصداقة التي تربط أستاذنا الدكتور هدارة بالدكتور كمال نشأت الحصول على القسم الأخير من هذه المقامات ، وأرسلنا إلى الأستاذ محمد بهجة الأثري الذي يتوفر منذ أمد على تحقيقها ، فوعد مشكورا بإرسال نسخة منها حين يتم طبعها .

ولعل إصرارنا على الوقوف على الآثار المقامية التي نتعرض لها بالحديث قد ظهرت نتائجه في غير موضع من الدراسة ، ونشير هنا إلى مقامتين مشرقيتين أكثر القوم من تناقل الحديث عنها باطمئنان بالغ دون أن يسعى أحدهم للوقوف عليها ، أولاهما مقامة ابن نباتة التي لوصح وجودها لكان لصاحبها السبق على البديع ، وقد اتضح لنا بالدليل القاطع أنها من مقامات القرن السادس ، والأخرى مقامة الوطواط التي اتضح لنا بعد الوقوف عليها أنها بين رسائله المنشورة .

أما المقامة القرطبية أشهر المقامات العربية المفردة ، فقد كشفنا عن نصها لأول مرة ، وبيننا كيف أسرف القوم على أنفسهم حين خلطوا بينها وبين غيرها من مقامات الفتح بن أخاقان .

ومن الصعوبات الحقيقية التي واجهها هذا البحث ، التحقق من تراجم الرجال ووفياتهم ، وتواريخ إنجازهم لآثارهم المقامية خاصة في المغرب والأندلس حين تشح المصادر وتظل متابعة الرجال وربطهم بآخرين من معاصريهم أو بحوادث عصورهم رحلة مضيئة لامندوحة عنها للوقوف على زمن تقر يبي لعصر كاتب أو آخر .

ولم يكن تحليل هذه المقامات ورصد اتجاهاتها المختلفة ومحاولة درس بنائها الفني والأدبي بمفهوم العصر ومقاييسه أقل صعوبة وتعقيدا .

ولقد أوجبت أسباب عديدة أن يخرج هذا العمل إلى جمهور القراء والدارسين في قسامين ، ومن ثم آثرت أن أفرد هذا القسم بما كتبت عن نشأة المقامة في ادبنا العربي ، وهو مبحث مستقل لاغنى عنه لمن يريد فهم طبيعة العمل الأدبي في القرن السادس ، بل لابد منه للدخول إلى عالم المقامة الأدبية بوجه عام .

ومهما يكن من أمر فحسب هذه الدراسة أنها اختارت فترة من أزهى فترات المقامة العربية ، وحاولت قدر الطاقة أن تقترب من نصوصها ، وأن تستكشف أسرارها في صبر وأناة ، ولعلها قدمت إجابات مقنعة عن عشرات من الأسئلة التي تتعلق بهذا الفن العربي الأصيل ، ولعلها أيضا قد طرحت عشرات أخرى من الأسئلة تنتظر باحثا أو باحثين قد يتاح لهم في وقت لاحق ما لم يتح لكاتب هذه السطور . وبالله التوفيق ،

الفصل الأول

المقامة بين الوضع اللغوي والمعنى الاصطلاحي

سمى بديع الزمان كتابه المعروف « كتاب المقامات » ، ولم يترك لنا مقدمه يوضح فيها سبب هذه التسمية ، ولعله فعل ولكن هذه المقدمة ضاعت مع ماضع من مقاماته .

وتدل كلمة « مقامة » - بفتح الميم (١) - واحدة المقامات في الاستعمال العربى القديم على موضع القيام ، فهى مفعلة من القيام ، يقال مقام ومقامة كمكان ومكانة ، وهما فى الأصل اسمان لموضع القيام .

وتوسع العرب فى استعمال كلمة « مقامة » حتى استعملت استعمال المكان والمجلس (٢) ، و يظهر هذا الاستعمال جليا عند عدد من أقدم شعرائنا الجاهليين كقول بشامة بن الغدير (٣) :

وشربت بالقعب الصغير وقاذنى نَحْوَ الْمَقَامَةِ من بَيْتِ الْأَصْغَرِ

(١) ولا يصح نطقها بالضم ، « المقامة بالضم الإقامة ، يقال أقام إقامته ومقامته (كالمقام والمقام) بالفتح والضم (وقد يكونان للموضع) لأنه إذا جعلته من قام فهو مفتوح ، وإن جعلته من أقام فهو مضبوط ، فإن المقام إذا حاور الثلاثة فالموضع مضبوط الميم لأنه مشتق سنوات الألف بع نخود خرج ، وهذا مدح واحد . وقوله تعالى لا مقام لكم أى لا موضع لكم . وقرئ بالضم أى لإقامته ، (راجع العروس قوم) ، وفى معجم البلدان (مقام) : وقيل المقام موضع قدم القائم ، والمقام ، بالضم ، مصدر أقم بالمكان معاماً وإقامة ، والمقام فى المسجد الحرام ، هو الحجر الذى قام عليه إبراهيم عليه السلام .

وقال الخفاحى : ويدل على أن المقام بالفتح اسم لمكان القيام ، إبدال الجنات منه فى قوله تعالى : (إن المتقين فى مقام آمن فى جنات وعيون) والجنات أمكنة ، والمقام بالضم الإقامة بنفسها وكذلك المقامة بالضم ، ومنه قوله تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) ، وقال الجوهري : يجوز أن يكون كل واحد منها للمكان والفعل ، سواء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل : ص ١٨٩ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ ، وانظر بعضه تثقيب اللسان وتنقيح الجنان : لآبى مكى الصقلى : ص ١٢٦ بتحقيق عبد البر مظهر القاهرة ١٩٦٦ . والحجة فى المراءات السبع لآبى حالويه ص ٢٣٩ و ٢٨٩ و ٣٢٤ بتحقيق الدكتور عبد العال سامى مكرم ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ هـ .

(٢) مقامات الرمحسرى ١٠ القاهرة مطبعة التوفيق ، الطبعة الثانية ١٣٢٥ هـ ، وسواء العليل ١٨٩

(٣) كتاب المعص لا سامه بن معمر ص ٣٩٥ بتحقيق حسن عبد من . الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية - الطبعة الثالثة ١٩٨١

وقول نهشل بن حري الدارمي (٤) :

إننا نظرنّا في المقامة مالكاً نظر المسافر أين ضوء الفرقد

وورد في شعر عمرو بن قتيبة (٥) حيث يقول :

لعمري لنعم المء تدعوبحيلي إذا ما المُنَادى في المَقامة نَدَا

وقول مالك بن حريم الهمداني (٦) :

وأقبل إخوان الصفاء فأوضّعوا إلى كلّ أخوى في المَقامة أفرعاً

وقول العباس بن مرداس السلمي (٧) :

فأتى ماوأيك كان شراً فيسق إلى المقامة لا يراها

وعلم هذا النحو استعمالها أيضا المسيب بن علس مجموعة حيث يقول (٨) :

وكالمسك نرب مقامهم وترب قُبورهم أطيب

ومثله قول سلامة بن جندل (٩) :

سومان : نؤه مقامات وأنديّة يوم سِير إلى الأعداء قأويب

(٤) مقامات - ص ١١ ، وفي الأصل (حري) بصحيف ظاهر .

(٥) ديوانه ص ١ ، محقق حسن ، دار المصروف ، القاهرة ، محله معهد المخطوطات العربية ، المجلد الحادي عشر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

(٦) الأصمعيّات ، للأصمعي ، عبد الملك بن قريب ، الأصمعيه ١٥ ص ٦٣ بتحقيق وسرح أحمد محمد ساكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف مصر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

(٧) د - ص ١٤١ حميد وحففة الدكتور نجيب الجوري ، بغداد ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ودبوان هـ ص ١١٣ (صبعة نعلب ، الهيئة العامة للكتاب ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) ، والديان (فوه) هـ هـ هـ في المقدمة ، داح العروس (فوه) وفيه : نعبد (نحر نف ظاهر) .

(٨) د - ص ١١ هـ هـ (بن علس) بالمعجمة (بصحيف) وشهداء المعلى .

ومن هنا أطلقت على أهل المجلس ، فيقال للجماعة يجتمعون في مجلس مقامة ، ومن ذلك قول لبيد (١٠) :

وَمَقَامِي غُلِبَ الْهَرَابُ كَأَنَّهُمْ جُنُّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ (١١)
دَافَعْتُ خُطَّتَهَا وَكُنْتُ وَلِيَّهَا إِذْ عَنَى فَضَلَ جَوَاهِرِ الْحُكَّامِ

وقول القتال الكلابي (١٢) :

شَدْتُ زِيَادًا وَالْمَقَامُ بَيْنَنَا وَذَكَرْتُهِ أَرْحَامِ سَعْدٍ وَهَيْثُمِ
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرَ مُنْتَهَى أَمَلْتُ لَهُ كَفَى بِلَدُنْ مَقُومِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيْ سَاعَةَ مَنْدَمِ

والجمع « مقامات » كما في قول زهير (١٣) :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ جِسَالٍ وَجَوَاهِرِهَا وَأَنْدِيَّةُ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ
إِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفِيَتْ حَوْلَ بَيْوتِهِمْ مَجَالَسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ
وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ رَشِدْتُ فَلَا عُزْرٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

(١٠) شرح ديوان لبيد ٢٩٠ حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، الكويت ١٩٦٢ ، ولسان العرب وتاج العروس (قوم) .

(١١) في الديوان : طرف الحصير ، والمثبت من اللسان وتاج العروس ، والحصير ها هنا : الملك .

(١٢) التذكرة السعدية في الأشعار العربية : للبيدي ص ٩٠ بتحقيق عبد الله الجبوري ، بغداد ١٩٧٢ م .

(١٣) شرح ديوان زهير : ١١٣ ، والأول في مقامات البديع ص ٤٧ بشرح الشيخ محمد عبده ، بيروت المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة السابعة ١٩٧٣ ، وبعده :

على مُكثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَغْتَرِيهِمْ وَعِلَّةُ الْمُقْلَبِ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وانظر في الأول أيضا : مقامات الزمخشري ١١ ولسان العرب وتاج العروس (قوم) وشفاء الغليل : ١٨٩ ، وقد فرق بروكلمان بن قولي لبيد وزهير فقال انه عند زهير بمعنى مجلس القبيلة ، وعند لبيد بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس ، ولا وجه لذلك ، وقد تنبه فيه الدكتور شوقي ضيف (المقامة : ص ٧ القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م) والدكتور بيه حجاب (بلاغة الكتاب في العصر العباسي ص ١٠٥ - القاهرة ، الطبع الأول ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م)

وهذا جرى على السبى العربى فى التعبير، قال مهلهل (١٤) :
 نبئت أن السار بعدك أوقدت واستبّ بعدك يا كليب المجلس
 يعنى أهل المجلس ، وقد جاء فى الحديث الشريف من ذلك قوله : « وإن مجلس
 بنى عوف ينظرون إليه » ، أى أهل المجلس (١٥) . يقول الخفاجى (١٦) :
 « ثم اتسعوا فى هذا المعنى حتى سَمُوا ما يقام به فيها من خطبة أو موعظة
 ونحوها مقامة ، فقالوا مقامات الخطباء ، ومجالس القصاص ، وهو مجاز باعتبار
 المجاورة والاتصال كتسمية السحاب سماء فى قوله تعالى : وأنزلنا من السماء ماء
 طهورا » .

وقريب من هذا قول ثعلب فى شرحه على بيت زهير (١٧) :

« و يقال : هو مقامة قومه إذا كان يقوم فيتكلم فى الحَضّ على المعروف »
 وهذا يفسر لنا قول الجاحظ أن سليمان بن دواد عليه السلام اتخذ العصا « لخطبته
 وموعظته ، ومقاماته ، وطول صلاته » (١٨) ، وما صنعه ابن قتيبة حين عقد فصلا
 فى كتابه عيون الأخبار سماه « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » أورد فيه
 بعض ما أثر عن أصحاب الرأى والشجاعة من الزهاد فى الرد على الملوك والخلفاء
 وزجرهم عن اتباع الأهواء (١٩) ، وعلى هذا النحو أيضا يمكننا تفسير قوله فى صدر

(١٤) مقامات الزخشرى : ١١ ، وشفاء الغليل ١٨٩

(١٥) شفاء الغليل : ١٨٩

(١٦) شفاء الغليل : ١٨٩ وانظر مقامات الزخشرى ص ١١

(١٧) شرح ديوان زهير : ١١٣

(١٨) البيان والتبيين للجاحظ : ٣٠ / ٣ بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة لجنة
 التأليف ، الطبعة الثانية ١٩٦١ م . وقد نفل عنه أسامة بن منقذ هذا القول فى كتابه
 « العصا » ص ٢٩٢

(١٩) عيون الأخبار لاس فتية : ٣٣٣ / ٢ - ٣٤٤ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣ ، تم
 تلاه باب المواعظ ، وقد حدا ابن عبد ربه الأندلسى حدوده فى العقد حين أفرد جانباً كبيراً من
 كتاب الـمرردة فى المواعظ والرهـد لما سماه (مقامات العباد عند الخلفاء) ، راجع العقد
 المـررد ١٥٨ / ٣ - ١٦٥ . تحقيق أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف
 ١٩٤٩

كتابه الشعر والشعراء (٢٠) :

« وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها رَيْضه ، وكذلك الكلام المنشور في الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب ، ولا يعرف لذلك سبب »

ولكننا لانستطيع أن نفهم من ذلك ، او من قول ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه العقد (٢١) :

« فتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع إليه ، ومن نواذر الكلام ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقك ، و يطول به قلمك ، وانظر في كتب المقامات والخطب . »

ان المقامات الأدبية بمعناها المعروفة قد ظهرت قبل عهد بديع الزمان كما يرى أنيس المقدسي (٢٢) ، وإنما نفهم من هذه الكلمة التي وردت عند ابن عبد ربه ، والتي تشهد ألفاظها أنه نقلها في جملة كلام طويل عن إبراهيم بن المدبر في نصائحه للشادين من الأدباء والكتاب ، التي يرد في جملتها قوله (٢٣) :

« فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك ، واستنجاح بلاغتك ، ومن نواذر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار ، والسير والأسمار ، ما يتسع به منطقك ، و يعذب به لسانك ، و يطول به قلمك ، وانظر في كتب المقامات والخطب . »

(٢٠) . الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٨٠ / ١ بتحقيق أحمد محمد سaker ، القاهرة دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

(٢١) العقد الفريد : ١٧٥ / ٤

(٢٢) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي ، ص ٣٦١ ، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٦٨ ، وقد رأى أنيس المقدسي أنه من كلام بريد بن عبد الله لكاتبه ، وهو وهم لا يؤيده السياف ، ويرى زكي مبارك أن المقامات في كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقبها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك ، (الترغى ٢٤٥ / ١) ولا فرق في معناها مذكورة لو مؤنثة .

(٢٣) الرسالة العذراء : لابراهيم بن المدبر ص ٧ بتحقيق وشرح الدكتور زكي مبارك ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ .

ان المقامات بمعناها المعروف عند ابن قتيبة قد دونت في كتب تختص بها ، أو ضمن كتب الخطب ، ولا يبعد أن تكون الإشارة في قول ابراهيم بن المدبر إلى كتب المجالس والأمالى ، أما المقامات الأدبية بالمعنى الذى نعرفه اليوم فلم تعرف حتى طلع بديع الزمان الهمداني على الناس في القرن الرابع الهجرى ، بفنه الأدبى المعروف الذى اختار له هذه التسمية ، وهذا وضع لكلمة المقامات معنى اصطلاحيا لم يستعمل من قبل ، ولقد فطن الى هذا الخفاجى حيث يقول (٢٤) :

«مقامة ، واحدة المقامات بفتح الميم — المعروفة في صناعة الأدباء والوعاظ مولدة محدثة لم تقع في كلام أحد من المتقدمين لكن لها وجه من المجاز»

وقد دعانى إلى هذا العرض السريع للوضع اللغوى والمعنى الاصطلاحى لكلمة «مقامة» وإن لم يكن من هموم هذا البحث أن فريقا من الباحثين شغلهم هذه التسمية فحاولوا أن يجدوا لها تعليلا مقبولا ولكن التوفيق جانبهم في كثير من الاحيان .

ولعل بروكلمان (٢٥) أول من حاول تتبع معنى كلمة مقامة وتطورها منذ العصر الجاهلى إلى عصر بديع الزمان ، وهذه المحاولة مشروعة في لغات أوربية كثيرة حيث توجد معاجم تؤرخ للتطور المعنوى لكلماتها ، ولكنها في لغتنا العربية تصبح محاولة مخوفة بالمخاطر لفقدان مثل هذه المعاجم ولضياع كثير من النصوص القديمة التى يمكن أن تعين عليها ولا نستعجم كثير منها حين تعوز الإجابة عن تساؤلات الباحثين .

ولقد رأى بروكلمان أن الجاهليين استعملوا كلمة «مقامة» بمعنيين في آن واحد ، أولها مجلس القبيلة ، أو ناديها ، واستشهد على ذلك بقول زهير المتقدم والآخر بمعنى الجماعة التى تؤلف هذا المجلس كما ورد في شعر لبید .

ونحن نوافق بروكلمان على أن العرب استعملوا الكلمة للدلالة على المعنيين معا ولكننا لانوافقهم على ماذهب إليه من الاستشهاد بقول زهير على المعنى الأول ، فالكلمة في بيت زهير أيضا تدل على القوم المجتمعين تماما كما استعملها لبید ،

(٢٤) شفاء العليل ١٨٩

The Encyclopaedia of Islam 3 161 (Makama)

(٢٥)

وكل ما همالك من فرق أن زهيرا استعمل الكلمة مجموعة ، بينما استعملها لبيد مفردة ، وقد أوردنا نحن أمثلة ظاهرة على استعمالها بمعنى المجلس في شعر بشامة بن الغدير والمسيب بن علس وغيرهما .

و يرى بروكلمان أن مفهوم الكلمة قد تطور بتطور الحياة واتخذت سماتا دينيا فصارت تعنى مجلسا يقوم فيه شخص بين يدي الخائفة ، أو الأمير حيث يلقى خطبة وعظمية ثم صارت تقرر بالشعر والأخبار الأدبية في ذكر العقائ والأيام فصارت تستعمل بمعنى المحاضرة ، ولكنها في القرن التاسع تهبط من مستواها الرفيع إلى مستوى الكدية والاستجداء بلغة مختارة .

وقد بينا من قبل أن العرب قد توسعوا في معنى الكلمة حتى سمو ما يدور في هذه المجالس من خطب ومواعظ وغيرها مقامات ، ومن ثم لا نرى أن هناك هبوطا أو ارتفاعا في معنى الكلمة ، وكل ما هنالك أن الكلمة أصبحت تدل دلالة اصطلاحية خاصة على نوع من النشاط الأدبي .

ولم يقلل من شأن الكلمة أن أدار البديع مقاماته هذه على الكدية وجعل من بطلها أفاقا محتالا ، ولا أدل على ذلك من أن كلمة « مقامة » ظلت مقترنة بهذا الضرب من النشاط الأدبي . وإن كان محوره بعيدا عن معنى الكدية الذي اختاره البديع كما هو الحال في مقامات الغزل والمدح والهجاء والمناظرة وغيرها ...

وأرى أنه إنما اختار هذه التسمية لمقولاته تلك لأنه اختار بطل حكاياته من المكدين الذين يأتون المجالس والمقامات للاحتيال على أهلها بما يملكون من لبس وفصاحة

ومما ألا حظ له ان البديع كان حريصا عند الحديث عن مقاماته هذه — وقد جاء مرتين في رسائله — أن يذكر أنها مقامات الكدية (٢٦) وكأنه بهذا المعنى يفرق بين هذه المقامات وغيرها ، ولا ذنب له حين استهوى موضوع مقاماته من أنشأوا مقامات أدبية من بعده .

ولا شك عندى في أن الكلمة ظلت حية سواء بمعانيها القديمة ام بمعانيها الاصطلاحية الأخرى إلى جوار المعنى الاصطلاحى الأدبى الذى خلعه عليها البديع .

(٢٦) — انال بديع الزماني ٢٣١ ، ٣١٥ ، القاهرة مطبعة جامعة القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٣٤٦ هـ ، ١٩٢٢ م

فقد وضع الغزالي كتابه « مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والامراء » (٢٧) وهو خلافا لما ظن بلاشير وغيره (٢٨) من أنه مقامات أدبية يستعمل كلمة « المقامات » بمعنى الموعظة تقال في مجلس على نحو ما نجد عند ابن قتيبة .

بل وضع أيضا بالفارسية « كلمات در تقرير مقامات » (٢٩) وهو هنا يستعمل الكلمة بمعناها الاصطلاحية عند الصوفية ، وهو بمعنى الرتب أو المنازل ، وقد رتب كتابه هذا على ثمانية أبواب هي : علم التوحيد والمعرفة والحال والمعاملات والمكاشفات والخطاب والسمع والوجد ، وهو بذلك لا يقع بعيدا عما فعل أبو عبد الرحمن السلسي (٤١٢ هـ) قبله حين وضع كتابه « مقامات الأولياء » (٣٠) .

ولا يزال مصطلح « المقامات » معروفا عند الصوفية حتى يومنا هذا ، وفي كتاب التعريفات للشريف الجرجاني (٣١) :

« المقام في اصطلاح أهل الحفيقة عبارة عما يوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطالب ومقامات تكلف ، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك » .

و يقول في موضع آخر (٣٢) :

« وأما المقام عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام »

(٢٧) مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ص ٢٥٩ ، الكويت ، الطبعه الثانيه ١٩٧٧ هـ .

(٢٨) انظر مدونات الريان ، فكتور الكان ص ١٣٠ (بيروت ، المطبعه الحائمه ١٩٦١ م) ، ورأى في المقامات : الدكتور عبد الرحمن داعي ص ٣٣ ، بيروت المكنب البحاري ، الطبعه الاولى ١٩٦٩ هـ .

(٢٩) مؤلفات الغزالي : ٣٦٤

(٣٠) طبقات الصوفيه : لأبي عبد الرحمن السلمي ، المقدمة ص ٤١ بتحقيق نور الدين سرييه ، القاهرة ، مطبعه دار الذاليف ، الطبعه الثانيه ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ هـ .

(٣١) على بن محمد السند بن الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) ص ٢٤٤ ، بيروت مكتبه لبنان ١٩٦٩ هـ .

(٣٢) النعمان ص ٢٨٥

ولقد أكثر الخوانساري النقل عن كتاب المقامات لنعمة الله بن عبد الله الجزائري ،
وقال عنه (٣٣) :

« ... وكتاب مقامات النجاة » في شرح أسماء الله الحسنى بترتيب حروف
الهجاء بلغ فيه الى آخر حرف الضاد المعجمة ، ثم تركه كما أفيد بأمر مولانا المجلسي
بذلك لكثرة ما أودعه فيه من الأشعار العرفانية والأشعار الوحدانية ، وإن كان فيه
كثير من المطالب الطريفة والفوائد الشريفة التي لا يحصى غيرها ، ويوجد
عنه النقل في درج كتابنا هذا كثيرا » .

وعلى حين نجد صاحب الطالع السعيد بورد لابن دقق العبد في ابن الجوزي
قوله (٣٤) :

دققت في الفطنة حتى لقد أبديت ما يسحر أو يسبى
وصرت في أعلى مقاماتها حيث يراك الناس كالشهب

نجد الاربلي في رسالة الطيف بن علي بن أبي طالب (٣٥) :

سأل عن معنى مقامات غفر به شدة عرى الدين في حل ومير تحل
بدرا وأحدا وسأل عنه هوازن في أوطاس واسأل به في وقعة الجمل

فقد استعملها ابن دقيق العيد كما تعرف في اصطلاح أهل التصوف ، ثم جاء
الاربلي واستعملها كما عرفت في الاستعمال العربي القديم .

(٣٣) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : الخوانساري ١٥٣/٨ بتحقيق أسد الله
اسماعيليان ، طهران ١٣٩٠ هـ . وانظر ١٧/٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، ١٦٩ .
٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ١٧٣/٨ وغيرها ، وانظر أيضا ابن الخطيب حيث ذكر لمعاصره محمد بن
عيان كتاب « ما رأيت وما رثي لي من المقامات » المجلد ١/٢ ١٤١ بتحقيق محمد عبد الله
عنان ، القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٧٣ م - ١٩٧٧ م .

(٣٤) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد : للإدهري ص ٥٩٣ بتحقيق سعد محمد حسن .
القاهرة ١٩٦٦ وانظر أيضا ص ٢٤٥ حيث قال في ترجمة رفاعه بن أحمد الغنائي : « مذكور مع
أرباب المقامات وتنقل عنه الكرامات » .

(٣٥) رسالة الطيف للاربلي : ٢٩ بتحقيق عبد الله الجبوري ، بغداد ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

والذى نريد أن نخرج به من هذا كله أن كلمة « مقامات » ظلت حية بمعناها الاصطلاحية عند الأدباء وعند أهل التصوف ولكن معناها الوضعية ظل موجودا ومستعملا أيضا ، وعلى هذا النحو يستعملها رجل من رجال القرن الرابع هو أبوالمظهر الأزدي صاحب حكاية أبي القاسم البغدادى ، إذ يقول فى صدر كتابه :

« أسفار لنفسى دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها »

بل إن البديع نفسه قد استعملها على هذا النحو حين قال فى بعض رسائله إلى وزير الرقى (٣٦) :

« مواقف خدمته مشهورة ، ومقاماته مشكورة »

وهذا المعنى استعملها ابن الأثير حين رأى أن الصفة تأتى فى الكلام على ضربين ، إما للتأكيد والتخصيص ، وإما للمدح والذم ، ثم عقب على ذلك بقوله (٣٧) :

« وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والاختصار » ويعنى المجلس أيضا يستعملها ياقوت الحموى فى القرن السابع حين يقول نقلا عن الثعالبى فى حديثه عن الخوارزمى (٣٨) :

« فلما تصدى الهمذانى لمباراته وجرت بينها مقامات ومباديات ومناظرات وغلب قوم هذا وغلب آخرون ذاك ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق »

ومع هذا فقد تركت محاولة بروكلمان أثرها فى من أتوا بعده ، فمنهم من اكتفى بترديد كلامه معنيا نفسه من عناء البحث (٣٩) ، ومنهم من أراد أن يتمثل كلامه

(٣٦) رسائل البديع : ١٦٩

(٣٧) المش السائر : لضيء الدين بن الأثير : ٣١٢/٢ بتحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

(٣٨) معجم الأدياء لساقوت : ١٦٦/٢ نشر د . أحمد فربد وقاعى — مطبعة دار المأمون ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م .

(٣٩) محمود عساوى الرهيرى : الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٢٣ ، القاهرة مطبعة الامانة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ، حنا الصاخورى : تاريخ الأدب العربى ٧٣٩ ، دكتور شوقى صنف المقام : ٧٠

ويخرج به علينا في ثوب جديد فجانبه التوفيق كما فعل جورج غريب حين ظن أن للمقامة تعريفًا خاصًا بكل عصر (٤٠).

أما أنيس المقدسي فقد ذهب بعيدًا حين استنبط مما جاء عند ابن قتيبة وابن عبد ربه أن المقامات الأدبية كانت موجودة قبل عصرهما (٤١)، وفي هذا ما فيه من خلط، فهذه الأقوال تطلعنا على تطور مدلول كلمة «مقامة» ولكنها لا تطلعنا بحال على نشأة فن المقامة كما يريد أنيس المقدسي أن يستنبط بلى عنق النص.

فإذا انتهينا إلى الدكتور مصطفى الشكعة وجدناه يجهد نفسه للتحرر من أسر بروكلمان في محاولة طويلة لاستنطاق النصوص، ولكنها لم تفض إليه بشيء، فعلى حين ينكر على Huart. و بروكلمان أن تكون كلمة «مقامات» كما وردت عند المسعودي بمعنى محاضرات، ويرى من الأنسب أن تكون بمعنى «مواعظ» نراه يرى لها هذا المعنى كما وردت في بخلاء الجاحظ (٤٢):

وحين نستعجم عليه النصوص فلا يكاد يخرج منها بمعنى محدد، فتعطيه أكثر من معنى ظني لا يستطيع أن يغلب واحدًا منها (٤٣) يفرع إلى مقامات البديع فيقول:

«و بديع الزمان نفسه يستعمل المقامة بمعنى المجلس، قال في المقامة الوعظية: قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين من هذا؟ قال: غريب قد طرأ لا أعرف شخصه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعنه ينيء بعلامته (٤٤)»

و واضح أن الدكتور مصطفى الشكعة قد جانبه التوفيق في هذا الاستنباط البعيد، فلا شك أن البديع أراد بكلمة المقامة هنا الموعظة كما هو ظاهر من عنوان المقامة، والبديع يبدأ مقامته بقوله:

(٤٠) العصر العباسي: نماذج شرعية مغللة: ١١٠، بيروت، دار الشافعية، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م.

(٤١) تطور الأساليب الشعرية: ٣٦١

(٤٢) بديع الرمما: للدكتور مصطفى الشكعة ٢٠٤، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٩، وراجع: Huart: Litterature Arabe. P. 134

(٤٣) راجع بديع الرمما: ٢٠٤، ٢٠٥

(٤٤) بديع الرمما: ٢٠٥، ٢٠٦، وانظر مقامات البديع: ١٣٦

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا أنا بالبصرة أميس حتى أدانى السير إلى
فرضة قد كثر فيها قوم على قائم يعظهم ، وهو يقول : أيها الناس ، إنكم لم تتركوا
سدى ، وإن مع اليوم غدا »

وتنتظم هذه الخطبة جل المقامة ، و يظهر معنى الموعظة أيضا في قوله :

« ... فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعله ينبىء بعلامته ، فصبرت ، فقال : زينوا
العلم بالعمل ، واشكروا القدرة بالعفو ، وخذوا الصفو ودعوا الكدر يغفر الله لى
ولكم »

وعلى هذا النحو يطرّد استعمال كلمة « مقامة » في المقامات الأدبية نفسها ،
فهى إمدالة على المعنى الاصطلاحي للمقامات الأدبية ، وإمدالة على المعنى
الوضعي للكلمة بمعنى المجلس ، أو المجازى فتدل على ما يقال في هذا المجلس من
عظة وخطبة ونحوها (٤٥) .

ومن اختلطت عليهم الأمور في فهم معنى المقامة عبد الرحمن ياغى ، فإنه بعد
أن تابع بروكلمان وأورد كلامه ، عاد ليربط بين معنى المقامة وفكرة الهجاء ربطا
غريبا يبدو واضحا في قوله (٤٦) :

« وقيمة هذه الدلالات أنها تشير إلى جانب مادي ذى بال في الاصل الأول
للمقامة ، وهو الذى يشير إلى مواقف المهاجاة ، أو الخصومة ، أو المفاخرة ولا سيما
بالقول ، وهذا التهاجى ، أو التساب أو التخاصم ، سواء منه ما كان جادا أو ما
كان رياضة تعبيرية في سبيل هدف آخر ، ان يجرى أمام ملاء من الناس
بشاهدونه ، ويشهدون لمن يتم النصر فيه »

ولم يكتف ياغى بهذا الربط الغريب بين معنى المقامة وفكرة التهاجى ، فعندما
ورد عند ابن قتيبة من « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » معدودا في جملة

(٤٥) راجع مقامات الديع : الآ ٢٩٥ ، الرعظية ١٣٦ ، الرصافية ١٥٩ ، ومقامات الحريرى .
المقدمة ، التفليسيه ، المروية ، البصرية ، ومقامات الحنفى : ٢٤ ، ٢٩ ، ٥٨ ، ١٠٠ .
(استانبول : مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ) ، ومقامات ابن الجوزى : (خط : بتحقيق على
حميل على مهنا : لغة الأزهر ١٩٧٦ م) ٤٥٢ ، ٥٧٤ ، والمقامات الزبنة (خط : بتحقيق
عباس مصطفى الصالحى - دار العلوم ١٩٧٣ م) ٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ و ٢٩٦ .

(٤٦) أى في المقامات ٢٠٠

الأعمال المقامية ، بل رأى أنها تختلف عن الموعظة الخالصة وأنها تنطوي على بذور قصصية (٤٧) .

وهو في هذا لا يبعد كثيرا عما فعل الدكتور محمد رشدي حسن ، حين ضم إلى المقامات الأدبية ما ليس منها كمقامات الزهاد والوعاظ التي ترد عند ابن قتيبة وابن عبد ربّه والغزالي ، وجعلها حلقات في تطور الفن المقامي (٤٨) .

وقد تبعها في ذلك الدكتور يوسف نور عوض ، وهذا كله خلط لفهم المقامات الأدبية بمعناها الاصطلاحي بغيرها (٤٩) ، ومن هنا أرى القلقشندي أبصر منهم بفهم معنى المقامة حين عرف المقامات بقوله (٥٠) .

« وهى جمع مقامة بفتح الميم ، وهى فى أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس ، وسميت الأحدث من الكلام مقامة ، كأنها تذكر فى مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها »

أما « بهار » فقد حاول أن يهرب من أسر بروكلمان فخرج علينا برأى غريب إذ انكر أن تكون كلمة « المقامات » راجعة لأصل عربى ولكنها ترجمة للفظه الفارسية « كاته » أو « كاس » أو « كاه » اسم لتراويل وألحان دينية من الديانة الزردشتية وحاول أن يربط بين هذا الأصل الفارسى والاسنعمال العربى على أساس أن أحد معانى لفظه « مقام » فى إيران : النعمة الموسيقية ، وأنه يتصور أن الزهاد كانوا يتلون أحاديثهم بخضرة الخلفاء والأمراء بترتيل وتنغيم خاص ، والمقامات كذلك تقوم على أساس موسيقى بما تشتمل عليه من أسجاع وأشعار مطربة (٥١) .

(٤٧) رأى فى المقامات : ٢٨ ، ٢٩

(٤٨) تطور فن المقامة : ٢ - ٨ ، ١٠٢ - ١٠٤ (رسالة دكتوراه مخطوطة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٦٠ م) .

(٤٩) فن المقامات بين المشرق والمغرب : ٧١ (بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م) .

(٥٠) صبح الأعشى : ١١٠ / ١٠ ، (القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م) .

(٥١) سنان سمانسى . محمد نعى بها ، ٢ / ٢٢٤ ، ٣٢٥ طهران ١٣٣١ هـ وبعده فى هذا مصحح مقامات حمدى : المجلد ١٩ وانظر مقامه بوسى در ادب فارسى المذكور ، و. س. إبراهيمى تحريرى ١٨ ، طهران ١٣٤٦ هـ

وأحسب أن مثل هذا الرأي الذى لا تدفع إلى مثله إلا روح التعصب الكريه
أو الجهل الفاضح لا يحتاج منا إلى رد .

على أن « بهار » نفسه كفانا مؤونة الرد حين قال فى الصفحة التالية :

« يكاد يكون من المرجح أن لفظة (مقامة) من اختراع بديع الزمان إذ
أن كل اختراع فى الأدب العربى كان يجد له صدى فى الفارسية » . (٥٢)

(٥٢) سبكت سباسبى . ٣٢٦ / ٢ ، وانظر مقامات حميد الله (خط) ٧ :

الفصل الثانى

نشأة المقامة

لاختلاف على أن نشأة المقامات الأدبية كانت مشرقية ، وأما الذى لا اتفاق عليه فهو زمن هذه النشأة وصاحب الفضل فيها ، ومهما يكن من شأن الاختلاف حول منشىء المقامات فإنه يدور حول ثلاثة أسماء كبيرة فى تاريخ تراثنا الأدبى والفكرى ، عاش أصحابها بين القرنين الثالث والرابع وهم : بديع الزمان ، وابن دريد ، وابن فارس .

ولقد كان بديع الزمان أول من أطلق اسم المقامات على عمل أدبى من إنشائه وقد لاقت مقاماته قبولا فى نفوس معاصريه ، حتى نرى أبا بكر الخوارزمى حين أراد الانتقاص من قدره لم يملك إلا أن يقول إنه لا يحسن سواها وأنه يقف عند منتهائها (١) .

وبالرغم من أن البديع كان شديد التبجح بما صادفه من توفيق فى وضع هذه المقامات ، شديد الإلحاح فى دعوة الخوارزمى إلى إنشاء عشر مقامات على غرارها عبثا به واستطالة عليه فإنه لم يدع لنفسه شرف ابتكار هذا الفن .

ويبدو أن الحريرى هو أول من ادعى له ذلك كما يظهر من قوله فى مقدمة مقاماته :

« فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبثت مصابيحها ، ذكر المقامات التى ابتدعتها بديع الزمان وعلامة همدان ، رحمه الله تعالى ، وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يُعرف ونكرة لا تتعرف ، فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلف فيها تلو البديع وإن لم يدرك الظاليع شأو الضليع »

وقوله :

« .. هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سبّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ، والله در القائل :

(١) سائر البديع : ٢٣٧

فلو قبل مبكاها بكيت صباة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

تري ماذا يعنى الحريرى بابتداع البديع ؟ هل يعنى أنه ابتدع فن المقامة ابتدعا ؟
أو يعنى أنه ابتدع ما أنشأ فى هذا الفن ؟

وإذا كنا نخادع أنفسنا فيما جاء من كلام الحريرى فإن أكثر من تصدوا
للحديث عن نشأة المقامات أمنوا عليه وأظهروه فى ألفاظ صريحة وربما استقوا ذلك
من كلام الحريرى نفسه انسياقا وراء ظاهر لفظه ، فابن خلكان يقول فى ترجمة
البديع (٢) :

« ... صاحب الرسائل الرائعة ، والمقامات الفائقة ، وعلى منواله نسج
الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوه واقتفى أثره ، واعترف فى خطبته بفضله وأنه
الذى أرشده إلى سلوك ذلك المنهج »

وابن حجة يقول فى معرض حديثه عن البديع (٣) :

« وهذا الإمام المتقدم الذى صلى الحريرى خلفه وأشار إليه بقوله فى مقاماته :

فلو قبل مبكاها بكيت صباة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذى سبق الحريرى إلى نظم المقامات وسبك العلوم فى تلك
القوالب الغريبة وعلى منواله نسج الحريرى واستعمل بعض أسماء مقاماته وقفى
أثر عيسى بن هشام بالحارث بن همام وعارض طرح الإسكندرى بما نسجه أبوزيد
السروجى ، وعلى كل تقدير فالبديع غرابة هذه الراية ، وعباس هذه
السقاية »

(٢) وفيات الأعيان : لابن خلكان ١٢٧/١ بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت
دار الثقافة .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب : لابن حجة ص ١٣٢ ، القاهرة ، الطبعة الخيرية الطبعة الأولى
سنة ١٣٠٤ هـ .

وأظهر من هذا قول القلقشندی : (٤)
« واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات ، علامة الدهر ، وإمام الأدب
البديع الهمداني » .
وفول الحفاجي (٥) :
« وأول من اخترع هذا البديع الهمداني وتابعه الحريري والزنجشري والفضل
للمتقدم :

« وما قصبات السبق إلا لمعبد »

ولقد يبدو هذا التواتر مضافا إلى إعترا ف الحريري كافيا للاقتناع بسبق البديع ،
غير أن كاتبها عربيا ألصق بعصر البديع من هؤلاء جميعا ، ولم يتح له الاطلاع على
مقدمة الحريري لأنه أقرب منه بالبديع عهدا هو « الحصري القيرواني » له رأى
يختلف اختلافا كبيرا عن هذه الآراء أودعه كتاب زهر الآداب (٦) حيث يقول
في حق البديع (٧) :

« ... وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلام غرض المكاسر أنيق
الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفها ، والهوى يعشقه ظرفا ، ولما رأى أبا بكر
محمد بن (الحسن) (٨) بن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه
استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها (٩) من معادن فكره ، وأبداها للأبصار
والبصائر ، وأهداها (١٠) للأفكار والضمائر ، في معارض حوشية وألفاظ

(٤) صبح الأعشى : ١١٠/١٤

(٥) شفاء الغليل : ١٨٩

(٦) قال الفاضل الرشيد بن الربيع في كتاب « الجمان » أنه ألف زهر الآداب في
سنة خمس وأربع مائة ، وفيات الأعيان : ٥٥/١ .

(٧) زهر الآداب : للحصري ٣٠٥/١ بتحقيق الدكتور زكي مبارك ، به وب ، دار الجبل ، الطبعة
الראسة ١٩١٢ م ، ومعه عنه الكلاعي في إحكام صمد . الكلام ١٢٠ تحقيق محمد رضوان
الدار ، بيروت ، دار النفاذ ١٩٦٦ ، و يافوت في معجم الأدباء ١٦٩/٢ .

(٨) في زهر الآداب : الحسن ، والتصويب من معجم الأدباء

(٩) في زهر الآداب : واستنخبها ، والتصويب من معجم الأدباء ، وفي الإحكام : وأنجبها .

(١٠) في زهر الآداب : وأهداها ، والتصويب من معجم الأدباء ، وفي الإحكام : وأنجبها .

غنجية (١١)، فجاء أكثر ما أظهر (١٢) تنبوع عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجب (١٣) الأسماع، وتوسع فيها، اذ صرف ألفاظها ومعانيها (١٤) في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة (١٥) عارضة (١٦) بأربعمئة مقامة في الكدية تذوب ظرفا، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى (١٧)، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلها يتهاديان الدر، ويتنافشان السحر في معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين، يتطلع (١٨) منها كل طريفة، ووقوف منها على كل لطيفة، وربما أفرد بعضها (١٩) بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية...»

ولم يكن الدكتور زكي مبارك أول من وقف على هذا النص كما يدعى في كتابه «النثر الفني» (٢٠)، فقد سبقه إليه المستعرب الألماني بروكلمان الذي أشار إليه في هدوء (٢١)

(١١) في زهر الآداب: في معارض عجمية وألفاظ حوشية، وفي معجم الأدباء: في معارض حوشية، وألفاظ غنجية، والمثبت من إحكام صفة الكلام.

(١٢) في معجم الأدباء: فجاء أكثرها

(١٣) في زهر الآداب: حجبها، والمثبت من الإحكام ومعجم الأدباء

(١٤) لم ترد في معجم الأدباء

(١٥) في معجم الأدباء: منصرفة

(١٦) في زهر الآداب: عارضتها، والمثبت من الإحكام ومعجم الأدباء

(١٧) في الإحكام: ومعنى

(١٨) معجم الأدباء: وتطالع

(١٩) زهر الآداب: أحدهما، والمثبت من معجم الأدباء

(٢٠) السير العيسى: ٣٠٣/١، الماهرة، دا، الكاتب العربي، وانظر ١/٢٤٥-٣ حيت يقول: «ولم يكن أحد نبه إلى فساد النص الذي نقلته أنفا عن زهر الآداب ووصلت منه إلى بناء في المقامات، وقد اتفق أن المسودتين وجه نظري أخيرا إلى إشارة ويدت في دائره العرف تدل على أن المسودتين هما من ذلك النص»

Encyclopaedia of Islam 3 162: A- B

(٢١)

وايط . ج لأدب العربي (مع - ٢) ١٨٤

ولكن الدكتور زكى مبارك تلقف هذا النص وعرضه على أستاذه المسيو مرسية في باريس ثم عاد إلى القاهرة بعد أن أعياه البحث عن «أحاديث ابن دريد» المذكورة فلم يوفق إليها ، ليعرضه على الدكتور طه حسين الذى أشار عليه بمراجعة أمالى القالى تلميذ ابن دريد لعله يجد هذه الأحاديث بين الأخبار التى رواها القالى عن أستاذه وهرع الدكتور زكى مبارك إلى صفحات الأمالى يقلبها فوجد بينها أخبارا يروها القالى عن شيخه ابن دريد يلوح عليه 'الطابع القصصى' فوتر في ذهنه أنها الأحاديث التى ابتكرها ابن دريد وأشار إليها الحصرى .

وبطريقة أوبأخرى حاول الدكتور زكى مبارك أن يقنع نفسه قبل أن يقنعنا بأنه وقف على أحاديث ابن دريد المفقودة فى أمالى القالى ، وحاول بكل طريق أن يخلع على هذه الأخبار من الصفات ما يوافق ما جاء فى نص الحصرى كما وقف عليه ، وخلص الدكتور زكى مبارك إلى عدد من النتائج سردها مطمئنا فى كتابه النثر الفنى (٢٢)

ولا أدري كيف صح عند الدكتور زكى مبارك أن يقطع بما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه الأخبار هى بعينها أحاديث ابن دريد مع أن القالى يروها دائما عن ابن دريد بإسناده عن غيره ، وهو غالبا يروى عن عبدالرحمن ابن أخى الأصمعى عن عمه ، ومعنى هذا أن هذه الأخبار تنسب إلى الأصمعى لا إلى ابن دريد نفسه ، ومعنى هذا أيضا أن هذه الأخبار نقلها القالى عن أستاذه رواية ولم ينقلها من أحد تصانيفه ، وهذا كله يناقض ما جاء واضحا فى عبارة الحصرى من أن ابن دريد ابتكر هذه الأحاديث ابتكارا ، وأنه دونها فى مصنف أظهره للناس « وذكر أنه استنبطها من ينباع صدره وانتخبها من معادن فكره ، وأبدأها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر » .

ويبدو أن طه حسين صرح لزكى مبارك بارتياحه ورؤيته فى كلمة (ابن أخى الأصمعى) ماثرا للشك ، ولكن زكى مبارك كان حريصا على تبرئة كشفه من كل عيب ، فرأى أن هذه كانت طريقة يتبعها رواة العرب ، وأن ابن أخى الأصمعى هذا كان وضاعا للأحاديث يكذب على عمه (٢٣) .

(٢٢) النثر الفنى : ٢٨٢/١ - ٢٨٣

(٢٣) المرجع السابق : ٣٠٣/١

وهذا كله لا يسند قضيته في شيء ولا يقيم دليلا عليها .

وعلى أية حال فقد كان ابن دريد مولعا بذكر الأخبار المستحسنة ، وكان حريصا على إسناد هذه الأخبار إلى من سمعها عنهم ، جاء في مقدمة كتابه « المجتني » الذي يشتمل على فنون شتى من الأخبار الموثقة وسماه كذلك لاجتنائه فيه ظرائف الآثار (٢٤) :

« .. وقد ضمنت هذا الكتاب أخبارا وأشعارا سمعتها فعزوتها إلى من سمعتها منه وأشياء قرأتها فيما قرأت من الكتب على أشياخنا ، رحمهم الله ، فمنها اجازة ومنها سماع » .

وأبلغ من هذا ما نراه في أمالي تلميذ آخر من تلاميذه هو الزجاجي الذي حشد أيضا مجموعة من الأخبار يرويها عن أستاذه (٢٥) إذ يروي أحد هذه الأخبار وهو حديث المرأة التي خطبها زيد الخيل ، وحاتم ، وأوس بن لأم الطائيون ، كما رواه القالي عن ابن دريد عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعي عن عمه ، وبسند آخر عن أبي حاتم عن عبيدة (٢٦) .

ويؤكد هذا قول الأبهري (٢٧) : « جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي ، فكان يقول في واحد حدثنا الرياشي ، وفي آخر حدثنا أبو حاتم ، وفي آخر حدثنا ابن أخى الأصمعي عن الأصمعي ، يقول كما نجىء على قلبه » .

ومهما يكن في هذا النص من اتهام لابن دريد في صدق روايته ففيه شيء آخر يهيننا هاهنا هو أن ابن دريد كان يحدث عن الأصمعي وأنه كان يملئ هذه الأقوال على تلاميذه ، ولكن رواية ابن دريد لأقوال الأصمعي شيء وأحاديثه المبتكرة شيء آخر .

(٢٤) المجتني لابن دريد : ١٢ ، حيدرآباد - الدكن ١٣٤٢ هـ

(٢٥) أمالي الزجاجي : ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٧ بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة المدنى الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ .

(٢٦) المرجع السابق ١٠٦

(٢٧) تاريخ بغداد لمخطيب البغدادى ١٩٦٢ ، القاهرة . مطبعة السعادة ١٩٣١ م .

وعلى هذا فإننى أرى أن اتهام ابن دريد فى الرواية لا يجعلنا نستطيع التمييز بين موضوعاته التى اتهم فيها وبين أحاديثه الأربعين ، وربما استطعنا ذلك حين يتوفر لنا حديث واحد على الأقل نجد نصا صريحا يطمئن إلى حقيقته ، ولو أننا عددنا روايات الرجل عن الأصمعى فى أمالى القالى وغيرها لبلغت بضع مئات ، لانستطيع أن نتبين فيها ما كان من موضوعاته هو وما كان رواية عن الأصمعى الذى ضاعت مدونه ، ولم نقف على كل ما يعزى إليه ، ويظل لدينا احتمال صدق رواية ابن دريد عن عبدالرحمن ابن أخى الأصمعى ، وإن كان الأخير كاذبا ، فإذا أضفنا إلى هذا اتهام القدماء لابن دريد بتلفيق السند تصعب علينا الأمر ، ولم نستطع تقدير حقيقة هذه الروايات على وجه الدقة كما أننا نجد لابن دريد روايات من جهات أخرى تتردد فى الأمالى وغيرها كروايته عن عمه عن أبيه عن ابن الكلبي وهذه السلسلة يحمل إلينا ابن دريد عددا من الروايات التى يظهر فيها أن الوضع والتلفيق أكثر مما يظهر فى غيرها كحديثه عن خنافر الحميرى ورثيه شصار (٢٨) ، ومع هذا لانستطيع الجزم بأنها من أحاديثه الأربعين .

إننى انطع برفض احتمال تسرب بعض الأحاديث الدريدية إلى أمالى القالى . ومع بعض رواياته قريبا منها على نحو من الأنحاء ، ولكن نص الحصرى ... أن صححناه - يوقع فى النسخ معنى لا تطمئن معه إلى صدق هذه الروايات . يجعلها تتعذب فيما يقع إليها من هذه الأحاديث ، مالا تجده فيما يخوض فيه القوم .

ولا أرى لماذا يصير الدارسون على البحث عن هذه الأحاديث فى أمالى المالى دهر غيرها ، ونحن نجد كتباً أخرى تكاد أن تكون مروية بأسرها عن ابن دريد ككتاب المصون فى الأدب للعسكرى (٢٩) ، وأمالى الزجاجى ، التى أقف منها عند ثلاثة أحاديث لم يروها القالى فى أماليه ، وهى قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والبطريق ، وخبر ساس بن لوى ، وما قيل فى رثائه ، وحديث

(٢٨) راجع الأمالى لأبى على إسماعيل بن القالى البغدادى : (١ / ١٦٩) الجزء المصرى . ١٩٧٥ هـ .

(٢٩) المصون فى الأدب لأبى أحمد الحسن بن محمد الله العسكرى (٣٨٢ هـ) ١٤٠٠ م . ١٩٦٠ هـ . عبد السلام هارون فى الكوكت سنة ١٩٦٠ هـ .

يعقوب بن يوسف الكوفي (٣٠) فآثر الوضع والتلفيق يظهر فيها بوضوح لانهجده في كثير من روايات الأمالي ، ومع هذا لانستطيع الجزم بأنها صورة من أحاديث ابن دريد المنشودة .

ومن هنا فإننا ننظر بكثير من الشك إلى استنتاج الدكتور زكي مبارك الذي رده بعدة كثير من الكتاب والباحثين ، بل إنهم ذهبوا في الأمر أبعد منه ، فإنه قد بنى رأيه على ما بين أحاديث وروايات الأمالي وبين حديث أبي نواس الذي رواه أبو حمزة الأصفهاني — جامع ديوان أبي نواس — من تشابه ، ولقد رأى أن ما روى في أمالي القالي عن ابن دريد يربو على ستين حديثا ، ولكنه قرر استبعاد الأحاديث القصار ليصير الباقي قريبا من الأربعين (٣١) .

ثم جاء الأستاذ خليل مردم فأعاد النظر في هذه الأخبار ، ولم يصح عنده مما يمكن أن يرد إلى أحاديث ابن دريد الأربعين سوى أحد عشر خبرا ، واستبعد غيرها لقصرها ، أو خفاء أثر الوضع والصناعة فيها (٣٢) ، ولكن الدكتور جميل سلطان عاد ليصحح بعض ما أسقط الأستاذ خليل مردم كخطبة الأعرابي ، ووصف الأسد لأنه يريد أن يدل على تأثر البديع بما جاء فيها (٣٣) .

ولو أمكن أن نثقف هذه الأحاديث في أي من الأمالي لكان الأولى أن نجدها في أمالي ابن دريد نفسه ، التي كان يظن إلى عهد قريب أنها مفقودة (٣٤) ، ولكن جزءا صغيرا منها ظهر مؤخرا (٣٥) يحوى بعض القصص التي تقترب كثيرا من روح روايات الأمالي ، بل إن بعضها يقترب من روح حديث حج أبي نواس

(٣٠) راجع أمالي الرحاجي : ٣٩ ، ٤٨ ، ٥٣ بتحقيق عبد السلام هارون ، الماهرة المؤسسة العربية ١٣٨٢ هـ .

(٣١) النثر الفنى : ١ / ٢٨١ — ٢٨٣

(٣٢) أصل المقامات : (الثقافة الدمشقية) : ١

(٣٣) في القصة والمقامة للدكتور جميل سلطان : ٢٠ ، ٢١ (دمشق ، مطبعة المرفى ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م) .

(٣٤) ارجع تشيخ المساد : ٣٢٢ هـ : ١

(٣٥) قطعة من الجزء السابع في ٦١ ورقة بالخرانة العامة بإلرباط رقم ١٥٣ في وعنها مصورة معبد المخطوطات العربيه رقم ٩٨٦ أدب ، و يظهر أنه تعليق من الأمالي .

و يفوقه في المجون (٣٦) ، ومع هذا يدرك هذا الجزء بصفه عامة على أن أمالي ابن دريد كانت في جملتها كما وصفها حاجي خليفة تقييدات لغوية في العربية (٣٧) ، وكما يظهر من نقول السيوطي عنها في كتابه المهر (٣٨) وهو وثيق الصلة بهذه الأمالي إذ لخصها في كتاب سناه « قطف الوريد » (٣٩) .

كما وقع في الملك مرتاض في حيرة كبيرة حين طالع روايات الأمالي ووجد أنها ذات طوابع مختلفة ، فرأى أن الحصري كان مخطئا أو مبالغاً في حكمه على إنتاج ابن دريد (٤٠) وانتهى إلى تقسيم هذه الروايات إلى أحاديث لغوية وأخرى أدبية .

ولكن أكثر الكتاب نسوا هذا أوتناسوه ونقلوا عن زكي مبارك أو نقل بعضهم عن بعض أن الأخبار المروية في الأمالي هي أحاديث ابن دريد بل ذهبوا بعيداً فقررروا في اطمئنان أن الأحاديث الأربعين مروية جميعاً في هذه الأمالي وراحوا ينقلون عنها الصفحات الطوال و يوازنون بينها وبين مقامات البديع ، ومنهم من وافق زكي مبارك على أنها تصلح نموذجاً ألهم البديع مقاماته ومنهم من أنكر ذلك ، ولكنهم جميعاً بنوا أحكامهم على أساس من هذه الأخبار التي روتها الأمالي ، و يطول بنا المقام لو سردنا هذه الأقوال جميعاً وناقشناها (٤١) ولكننا نكتفي هنا بقول الدكتور شوقي ضيف (٤٢) .

(٣٦) كحديث العجوز الذي أتى إحدى نسائه وعليه آثار غسل ، وقد أضربت عن ذكره لتناهيه في المجون الصريح .

(٣٧) ر.ب. في أسامي الكتب والفنون ١/١٦٢ (وكالة المعارف ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م) .

(٣٨) مع على سبيل المثال : ١/١٢٥ ، ٥٠١ ، ٣٤٦/٢ ، ٥٢٠ من المزهر في علوم اللغة وأنواعها بتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي .

(٣٩) راجع الاشتقاق لابن دريد ، المقدمة ص ١٥ بتحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٥٨ م .

(٤٠) القصة في الأدب العربي القديم : ١٦٣ ، الجزائر ، دارمكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨ م .

(٤١) راجع على سبيل المثال : تطور الأساليب النثرية : ٣٦٣ - ٣٦٥ ، القصة في الأدب

القديم : ١٦٣ - ١٧٢ ، الأدب المغربي : لمحمد بن تاوويت ومحمد الصادق عفيفي ٣٩٣ (بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م) ، دراسات نقدية في الأدب الحديث والتراث العربي للدكتور أنس داود : ٢٢٤ (القاهرة ، دار الجليل ١٩٧٥م) ، عصر سلاطين المماليك : لمحمود رزق سليم ٥/٣٧٠ ، القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م .

(٤٢) المقامة : ١٧ ، وعلى هذا النحو نجد الدكتور محمد رشدي حسن يرى أن أحاديث ابن دريد

« وقد رأينا في غير هذا الموضع أن كلمة «مقامة» معناها حديث ، وفي هذا ما يربط أدق الربط بين العاملين ، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهو الكتاب الذى يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين »

لنراه قد قرر أن الأحاديث الأربعين جميعا قد رويت في أمالى القالى وهذا ما لم يقله زكى مبارك نفسه ، ثم يستطرد بالموازنة بين مقامات البديع وهذه الروايات فيقول (٤٣)

« وعلى كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأمالى ويتعقب بديع الزمان في عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعيين ، وإن المقامة الأسدية عنده لتعد صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأمالى ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأمالى من وصف الفرس .

« وكثير من الأدعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالا مباشرا بما في الأمالى ونفس الحكم والأمثال والوصايا كل ذلك نجد صورة واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية وأخرى تسمى الوعظية وليس ذلك حسب فقد تكون الفكرة التى أدار حولها مقاماته ونقصد الكدية أو الشحاذة استمدتها مباشرة من « خطبة الأعرابى السائل فى المسجد الحرام » التى رواها صاحب الأمالى عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد فى مقامته وأنه عارضه بها معارضة »

ومن جهة أخرى يطالعنا الباحث عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجى بقوله (٤٤) :

= ليست موحدة فى كتاب مستقل ، و يؤمن تماما بأنها فى كتاب الأمالى وذيله والنوادر ، وعلى هذا درسها ورأى لبعضها قصدا بلاغيا وبعضها الآخر قصدا لغويا راجع تطورها من المقامة العربيه : ص ٢٠ ، ٢١ ، ٣١ (رسالة دكتوراه — مخطوطة — كلية الآداب — جامعة القاهرة ١٩٦٠) .

(٤٣) المقامة : ١٨

(٤٤) من المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ٦ (رسالة دكتوراه كلية الآداب — جامعة

القاهرة ١٩٧٤)

« ... ومما مهد أيضا لنشأة المقامة أحاديث ابن دريد الواردة في كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي . هذه الأحاديث لم يشر إليها أى من كتب التراجم التى ترجمت لابن دريد بل إن صاحب (الفهرست) الذى ذكر من مصنفات ابن دريد ما لم يذكره غيره من المترجمين من مصنفاته (التى لم يمهله الأجل لا تمامها مما هو مخطوط ولم ينشر بعد) لم يتعرض لأحاديث الأمالي وكل هذا لا يطعن — عندى — فى صحة هذه الأحاديث إذ أن أبا علي القالي أحد تلاميذ أبي بكر بن دريد ومن أخذ (كذا) عنه مباشرة ، فهو أقرب إليه ممن ترجم عنه ، ونلاحظ أن ما حوته هذه الأحاديث من ألفاظ حوشية ، وطريقة تعليمية ، هى أشبه بابن دريد اللغوى النحوى المعلم ، وهذه الأحاديث توجد فى كتاب الجماهرة لابن دريد نفسه ... »

هكذا انتهى الخانجي إلى أن أحاديث ابن دريد رويت فى أمالي القالي ، وسلمت هذه الأحاديث عنده من كل طعن ، و يتهاقت عجبنا من هذا أمام رأيه المدهش حقا حين يقرر أن ابن دريد روى أحاديثه فى معجمه « الجماهرة » ولعله ظنه شيئا آخر

ومهما يكن من أمر فقد وازن الخانجي بين روايات القالي ومقامات البديع لينتهى إلى رأى آخر يسوقه فى غير قليل من التردد حيث يقول (١٥)

« هذا ما كان من تأثير الأحاديث الدريدية على فن المقامات ، وهو الجانب اللغوى المحض ، أما ما زعمه الحصرى وجاراه فيه بعض المحدثين من أن الهمداني إنما عارض أحاديث ابن دريد ، أو أن تلك الأحاديث هى أصل الفن المقامى ، أو أنها هى التى ألهمت الهمداني مقاماته ، فزعم أقبلة بمحذور وعمرز ، وأقف منه موقف الشك طويلا ، بل — وفى تواضع — الرفض الصريح . »

أما قول الدكتور زكى مبارك (١٦) :

« ... لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التى ابتكرها ابن دريد (جاء أكثرها مما تنبوع عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبا الأسماع)

(١٥) فن المقامة : ٧ - ٨

(١٦) النثر الفنى : ٢٨٢/١

وأنها وفعت (في معارض عجمية وألفاظ حوشية) ولوأننا تتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور ، وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس في أحاديثه بعض الألفاظ التى اتهم بافئعالها وتوليدها .

فبناء على غير أساس ، لأن نص الحصرى الذى اعتمد عليه زكى مبارك كان ولا يزال محرفا أشد التحريف ، وقد حررناه وسعنا فيما مضى من التبول اعتمادا على مراجع عند ياقوت والكلاعى ، هذا القول الذى جعل الدكتور زكى مبارك يربط بين أحاديث ابن دريد ومارواه القالى عنه من أخبار ومحاورات الأعراب التى يزخر بها وبأمثالها كثير من كتب الأدب والذى جعل جماعة من الباحثين يذهبون إلى أن ابن دريد وضع أحاديثه هذه محاكاة وتقليدا لروح القصة الفارسية ، وإن قصصه استمدت موضوعها من البيئة الفارسية (٤٧) ، هذا القول الذى أدى إلى هذين الرأيين على ما بينهما من تناقض ، جاء محرفا ، لذا حق لمحمود غناوى الزهيرى عندما طالعه فى معجم الأدباء (فى معارض حوشية وألفاظ عنجهية) أن يقول (٤٨)

« لاشك عندى فى أن رواية ياقوت أصح من رواية زهر الآداب ... استدل على ذلك سن (كذا) ورود كلمة « عجمية » فى غير موضعها ، ومن إقحامها فى كلام سيق فى وصف أحاديث منتزعة من صميم الحياة العربية القديمة ، بعيدة كل البعد عن الحياة الفارسية ، تلك هى أحاديث ابن دريد وإذا لم يكن الأمر كذلك . فكيف يمكن أن يكون الحديث عن مقال حير ثم يوضع فى معارض عجمية ؟ بل كيف يوضع ذلك الحديث فى معارض عجمية ثم تنبوع عن قبوله الطباع ولا ترفع له حججها الأسماع ؟ وهل كانت هذه الأسماع وتلك الطباع إلا فارسية عصرية ؟ فلماذا إذن تنبوعه ولا تانس به ؟ »

(٤٧) تاريخ الأدب العربى : الجزء الثانى ، ١٩٨/٣ (القاهرة . مكتبة الانجلو المصرىة ، مطبعة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ / ١٩٥٨م) ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى لإبراهيم على أبوخشب : ٥٣٠ - (الإكندرية - الهيئة المصرية) ، تيارات ثقافية بين العرب والفرس للدكتور أحمد الحوفى : ص ٢٨١ (القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)

(٤٨) الأدب فى ظل بنى بويه : ٢٢٩

ومع هذا فإن نص ياقوت لم يخل من تحريف ولعل أصدق صورة لهذا النص هي التي نقلها لنا الكلاعي في إحكام صنعة الكلام حيث جاء (في معارض حوشية وألفاظ غنجية) هذا هو الوجه الذي يستقيم به الكلام لفظاً ومعنى فوصف الألفاظ بأنها عنجيهية وصف يأباه الحسن اللغوي لمن أدمنوا قراءة الكتب القديمة حيث العربية الناصعة والبيان المشرق .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم قول الحصري :

« فجاء أكثر ما أظهر تنبوع عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجب الأسماع » فالعبارة لا توحى بما ذهب إليه زكى مبارك والزهيرى من أن الصعوبة والإغراب في اللفظ بل توحى بأنها كانت في جملتها أحاديث ماجنة سيقّت في ألفاظ خليعة فاحشة لذا تنفر من تفاصيلها الطباع الكريمة ، وتتقزز من ألفاظها الأسماع الشريفة ، ولولا أن الزهيرى قد بنى نقده لنص زهر الآداب انطلاقاً من الإيمان بما ذهب إليه زكى مبارك من أن أخبار القالى هي بعينها أحاديث ابن دريد لكان له مع رواية ياقوت شأن آخر .

وخلاصة القول أننا نؤمن مع زكى مبارك بدور ابن دريد في نشأة المقامة العربية وأثره في عمل البديع ، ولكننا لا نستطيع أن نسلم معه بأن روايات الأمالي تعطى صورة صادقة لأحاديثه الأربعين ، ونميل إلى إشارة بروكلمان الهادئة (٤٩) : « و يظن زكى مبارك أنه وجد نقولا من هذا الكتاب في أمالي القالى ، ولكن الاستدلال على نسبة هذه القطع غير ظاهر » .

وأخيراً نجد من الباحثين المحدثين من يشير إلى ابن فارس اللغوي (٥٠) على أنه مبدع فن المقامات .

(٤٩) بروكلمان : (معرب) ١٨٤ / ٢

(٥٠) هو أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ، نجرى في النحو على طريقة الكوفيين . توفي بالري سنة ٣٩٥ هـ ، ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ٢٤٧ / ١ وإنباه الرواة للفظي ٩٤ / ١ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ - ١٩٥٥ م) وبعية الوعاة للسيوطي ٥٢ / ١ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م) و بروكلمان ٢٦٨ / ٢ ، وانظر العلامة اللغوي بن فارس الرازي للدكتور محمد مصطفى رصوان (دار المعارف مصر ١٩٧١ م)

وابن فارس هو أستاذ الهمداني ومؤدبه ، وكان متبحرا في علوم العربية مشاركا في فنون عديدة ، يناظر فيها ، ولكن اللغة ظلت أكبر أدواته ، فإذا وجد فقيها أو متكلما أو نحويا ناظره في جنس العلم الذي يتعاطاه ، فإن وجده بارعا جدلا جرّه في المجادلة إلى اللغة فيغلبه بها ، وكان يأخذ على الفقهاء إهمالهم علم اللغة ، و يلقى عليهم مسائل ينجلهم بها و يقول من قصر علمه عن اللغة وغولط غلط (٥١) ، و يبدو أن جملة من هذه المسائل قد جمعت لدى ابن فارس فصنّف كتابا أودعها فيه وسماه « فتيا فقيه العرب » (٥٢)

ومنه اقتبس الحريري مادة مقامته الثانية والثلاثين المعروفة بالطيبة أو الحربية حيث هجم أبوزيد على نادي بنى حرب وادّعى أنه فقيه العرب العرباء ، فنهض إليه فتى منهم « فقال إني حاضرت فقهاء الدنيا ، حتى انتقلت منهم مائة فتيا » ولم يزل يطرحها عليه واحدة بعد أخرى وأبوزيد يجيب عنها بغير تباطؤ حتى سلم له بما ادّعى . وهي مسائل فقهية تجرى على المذهب الشافعي وهذا يتضح بجلاء في قول الرواية للبطل في نهاية المقامة :

« وأشكر لمن نقلك عن مذهب إبليس إلى مذهب ابن إدريس . »

وقد كان الحريري شافعي المذهب ، كما كان ابن فارس من فقهاء الشافعية الكبار وقد لحظ القدماء هذا الاقتباس فأشاروا إليه بدقة كما في قول السيوطي :

« ... وله كتاب حلية الفقهاء ، وله رسائل أنيقة ، ومسائل في اللغة و يعاين بها الفقهاء ، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات — الآتي ذكره ان شاء الله تعالى — ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبة ، وهي مائة مسألة » (٥٣)

ولكن خيال جرجي زيدان وسع الأمر فلم يقف بظنه عند حد ، إذ تصور أن

(٥١) إنباه الرواة : ٩٤/١

(٥٢) كذا في إنباه الرواة : ٩٤/١ ، وإحكام صنعة الكلام ١٨٩ وفي بغية الوعاة ٣٥٢/١ فتاوى خطب العرب أو مسائل في اللغة يغالي (كذا ، واظنّها يغالب أو يعاين) إياها الفقهاء

(٥٣) بغية الوعاة : ٣٥٢/١ وقد نقل ذلك صاحب روضات الجنات عنه وعن ابن خلكار ١١٨/١ ، وانظر أيضا بروكلمان (معرب) ٢٦٨/٢ على أن ابن فارس لم يكن أول من وضع =

الحريري تأثر بابن فارس في وضع المقامات ، وما دام الأمر كذلك فلا شك أن البديع تلميذ ابن فارس أسبق منه إلى ذلك .

ومر هنا رأينا جرجي زيدان يقول في ترجمة ابن فارس (٥٤) : « وله فضل التقدم في وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس العلماء منها نسفه » ، و يقول في عمل البديع في مقاماته (٥٥) : « وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس اللغوي » ، لقد انتهى جرجي زيدان إلى أن ابن فارس هو المبتكر الحقيقي لفن المقامات الأدبية ، ومع ما في استنتاجه هذا من مغالطة فقد تناقله عن عدد من الباحثين (٥٦) ، بل نجد الدكتور جميل سلطان يعلق على كلام ابن خلكان بقوله (٥٧) :

« .. وفي هذا بيان لتأثير ابن فارس في نشأة المقامات ، إذ اقتبس الحريري منه ... وكان بديع الزمان الذي سبق الحريري بنحو قرن ، تلميذ ابن فارس الخاص ، حتى استنفد ما عنده ... على أن مقامة ابن فارس مفقودة فلا يمكن أن نقارن بينها وبين مقامات البديع أو الحريري » .

وهكذا نرى الدكتور جميل سلطان يقرر في اطمئنان بالغ أن لابن فارس مقامة من إنشائه وأنكى من هذا أن يأتي بعده الدكتور أحمد الحوفي ليجعلها مقامات لا مقامة حيث يقول عنه (٥٨) :

= مثل هذا التصنيف فقد سبقه ابن دريد في كتابه الملاحن ثم وضع المفتاح البصري (ت ٣٢٠ هـ) كتابا في موضوعه سماه « المنقذ من الأيثار » ، العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ص ١٩٤ ، وذكروا أنه أجود من الملاحن ولعل أول من عرف بهذا الضرب من المعايير اللغوية هو الإمام الشافعي نفسه ، انظر الملاحن واحكام صبعة الكلام ١٨٩ ، ومقدمة الاشتقاق : ٢٠

(٥٤) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : ٣/٣١٠ (راجعه وعلق عليه الدكتور شوفي ضيف ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ م) .

(٥٥) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢٧٧/٣

(٥٦) تطور الأساليب النثرية : ٣٦١ ، الأدب المغربي : ٣٩٣ ، بلاغة الكتاب : ١٠٦ ، الأصمعي : حياته وآثاره : للدكتور عبد الجبار الجومرد : ٢٧٢ بيروت مطابع دار الكشف ١٩٥٥ م ، العلامة اللغوي ابن فارس الرازي : ٤٩

(٥٧) في القصة والمقامة : ١٧

(٥٨) تيارات ثقافية : ٢٨١ ، وانظر أيضا قول إبراهيم علي أبوخشب في تاريخ الأدب العربي في ١٠٠

« وضع مقامات حاكها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من بينهم تلميذه بديع الزمان الهمداني » .

ثم نجد باحثا آخر هو الدكتور يوسف نور عوض يذهب إلى أبعد من ذلك ، حين يعلق على كلمة ابن خلكان بقوله : (٥٩)

« ولا نذهب إلى أن الأسلوب المقصود في عبارته تلك هو وضع المسائل الفقهية في المقامة لأن العطف الظاهر يؤكد أن الأسلوب المقصود هو أسلوب المقامة . وهذا لا يتناقض مع علمنا بأن الحريري قد جرى بديع الزمان في مقاماته كما جاء في اعترافه ، بل يدلنا على أن بديع الزمان نفسه قد اتخذ من ابن فارس مصدرا من المصادر التي ساعدته في صوغ أسلوبه الفني »

ثم راح يعلل غموض صورة أثر ابن فارس في المقامات البديعية ، وعدم القدرة على استنتاج ما بين أيدينا من نصوص لتحديد هذا الأثر على وجه الدقة بأن شخصية ابن فارس العلمية قد طغت على شخصيته الفنية وطمست ملامحها .

ولست محتاجا بعد هذا إلى القول بأن القدماء كانوا أدق فهما وتعبيرا من جرحى زيدان وأصحابه ، فقد أشاروا إلى أن الحريري قد تأثر ابن فارس في مقامة واحدة من مقاماته هي المقامة الطيبية ، وأن تأثره هذا لم يتعد المادة الغفل التي بنى عليها الحريري مقامته التعليمية هذه ، وأن اقتباسه كان من كتاب في الفقه لا من عمل أدبي ، وأخيرا لا شأن للبديع بهذا كله .

فالمسألة راجعة إلى الفهم السقيم لروح النصوص العربية القديمة ، والشطط في تأويل معانيها ، وراجعة أيضا إلى إهدار حق الكلمة عند باحثينا المحدثين حين

العصر العباسي الثاني ٥٣٠ « فإن رجلا كابن دريد جاء بعده بفترة من الزمن فصنع صنيعه ، وجرى في حليته ، ولكنه أخفق إخفاقه وسحب النار يخ على مقاماته ذبول النسيان ، وذلك الرجل هو ابن فارس » صاحب كتاب « مجمل اللغة » وقوله ص ٥٣٢ : « .. وقد ولبه أبو الحسين أحمد بن فارس البرازي صاحب كتاب المجمل في اللغة المتوفى ٣٩٠ هـ (كذا) فعمل — أيضا — مقامات لم تصل إلينا كسابقتهما » ، وانظر أيضا تاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي : ١٩٧/٣ حيث يقول : « فقد وضع مقامات اتبع الأدباء نسقه فيها وكان أولهم أتباعا تلميذه البديع » .

(٥٩) فن المقامات بين المشرق والمغرب للدكتور يوسف نور عوض : ٦٧ (بيروت ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م)

ينقل بعضهم عن بعض مهملًا ذهنه وفكره ، معنياً نفسه من عناء التنقيب في
بطون المصادر الأصلية .

واذن فلا علينا إذا استبعدنا ابن فارس ذلك الاسم الكبير في ميدان اللغة
والفقه من مضمار الفن المقامى .

وتبقى بعد ذلك أسماء ينبغي أن نتوقف عندها .

الفصل الثالث

رواد المقامة

(١) ابن دريد

(٢٢٣ - ٣٢١ هـ)

لا اخفى اننى ترددت شيئا وأنا أقدم ابن دريد بين رواد الفن المفامى فى الأدب العربى ، بل حين أقدمه عليهم جميعا ، فلقد يقال إن معارضة البديع لعمله وتأثره به حين كتب مقاماته لا يعنى أن ما وضعه بالضرورة مقامات ، ولكنى بعد أن قلبت الأمر على وجوهه زدت إيمانا بضرورة ما ارتأيت ، لسببين : أولهما : إظهار الدور الريادى لهذا الرجل فى نشأة فن المقامة ، الذى مازال يحتاج إلى تأكيد ، والآخر : أن الأحكام التى أطلقت على عمله تستدعى وقفة فيها الكثير من الأناة .

وترجع شهرة ابن دريد إلى كونه واحدا من علماء اللغة الكبار فى الفترة الطويلة التى عاشها بين القرنين الثالث والرابع ، ولكن ابن دريد لم يكن عالما لغويا فحسب ، بل كان أدبيا كبيرا أيضا ، وربما كانت الحاسة الأدبية عند ابن دريد أعز ملكاته جميعا وأقواها ، ويشهد على هذا شعره القوى الرصين فى ديوانه ومقصورته المشهورة ، الذى ينفى عن الذهن ما هو معروف عن شعر العلماء والكتاب من ضياع ، حتى قيل إن ابن دريد أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء ، وقال فيه أبو الطيب اللغوى (١) :

« وكان أحفظ الناس ، وأوسعهم علما ، وأقدرهم على الشعر ، وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر خلف الأحمر وأبى بكر بن دريد »

(١) مراتب النحويين : لأبى الطيب الادفوى ص ٨٤ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ،

مكتبة نهضة مصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .

ولقد عرف ابن دريد ذلك فروى عنه أنه قال (٢) :

«سقطت من حمارى بأرض فارس ، فبت وجعا ، فاتانى آت فى منامى وقال لى : قل فى الخمر شيئا ، فقلت : وهل ترك أبو نواس لقائل مقالا ؟ قال : أنت أشعر منه حيث تقول :

حَكَّتْ وَجَنَّةَ الْمُعْشُوقِ لَوْنًا فَسَلَطُوا عَلَيْهَا مَزَاجًا فَاكْتَسَتْ لَوْنًا عَاشِقِ
فقلت : من أنت ؟ قال : أنا شيطانك أبوراجية ، قلت : وأين تسكن ؟ قال :
الموصل .»

ويبدو أن هذا الميل الأدبى القوى فى نفس ابن دريد قد انعكس على تصرفاته الحياتية وأعماله العلمية ، فقد كان يحيا حياة الأدباء والشعراء انطلاقا وتحررا من القيود ، ولا يراعى ما هو معهود عند أقرانه من العلماء من الالتزام فى الفعل والقول ولا يتحرز فى ذلك حتى أمام تلاميذه حتى قال فيه بعضهم (٣) :
« كنا ندخل على ابن دريد فنستحي لما نرى من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى موضوع » ، أو أن سائلا أتاه ، فلم يكن عنده غير دن نبيذ ، فدفعه إليه ، فأنكر عليه غلامه ما فعل ، فقال : لم يكن عندنا غيره ، وتلا قوله تعالى : (لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون) .

وقد انعكس ذلك كله على أعماله العلمية فقد جرحه كثير من تلاميذه ومعاصريه واتهموه على نحو خاص بوضع السند واختراع الرواية ، فقد ذكره معاصره الأزهري فى صدر كتابه التهذيب فقال (٤) :

« ومن ألف فى عصرنا الكتب ، فوسم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى »

(٢) المحمدون من الشعراء : للقطبى ص ٢٨٠ بتحقيق رياض عبد الحميد مراد ، دمشق ، مطبعة الحجاز ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

(٣) بغية الوعاة : ٧٦/١ ، وطبقات النحاة واللغويين : لابن قاضى شعبة : ٨٥ بتحقيق الدكتور حسن غياض ، النجف الأشرف ١٩٧٤ م . وإنباء الرواة : ٩٥/٣

(٤) تهذيب اللغة : ٣٩/١ ، وبغية الوعاة : ٧٧/١

وقد سئل عنه الدار قطنى فقال : « تكلموا فيه ، وقيل إنه كان يتسامح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له (٥) »

ومع أن تجريح الأقران لا يؤخذ به فإن هذه الأقوال وإن كانت تؤثر في منزلته العلمية ، فإنها قد توحى بحاسة الخلق والابتكار الفنى عنده .

وليس من المستبعد بعد هذا على ابن دريد أن ينشئ فصولا نثرية تسعفه فيها ملكته الأدبية فيجيد فيها إجادته في شعره .

ولقد رأينا من قبل كيف أشار الحصرى إلى دور ابن دريد في خلق نمط أدبى جديد كان المعين الذى استقى منه البديع ، والنموذج الذى احتذى ، ورأينا أيضا كيف أعاد الدكتور زكى مبارك اكتشاف هذا الدور في عصرنا الحديث حين أبرز كلام الحصرى وأعطاه ما يستحق من العناية .

ومع أن النص كما وقف عليه الدكتور زكى مبارك لم يخل من تحريف أدخل بمعناه فإنه انتهى إلى الإيمان بدور ابن دريد رائدا لفن المقامة في أدبنا العربى ، ومنذ ذلك الحين تنبه الباحثون إلى هذا الدور ، ولم يكن هذا التنبيه إيجابيا دائما ، فلقد ارتفعت أصوات كثيرة تعارضه لسبب أو لآخر .

فهذا مارون عبود يقول صراحة (٦) :

« إن خطة المقامات هى من عمل البديع ، فلا لابس فارس ولا بن دريد في صنعتهما ، فالهمدانى هو الذى ألبسها هذا الطراز الموشى ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، فعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع » .

أما الدكتور مصطفى الشكعة فيقول فى شيء من التحرج (٧) :

« ونحن يجب أن نتقبل هذا الكلام بتحفظ شديد ، فقد يكون من الظلم لبديع الزمان والتجنى عليه أن نلصق به هذه الفكرة على علاتها »

وليس سرا أن يقال إن الرجلين وقد وضعنا كتابيهما عن البديع عزَّ عليها أن يعترفا لغيره بفضل السبق إلى أفضل أعماله .

(٥) نعيه الوعاة ٧٧٠١

(٦) بديع الزمان ٣٤

(٧) بديع الزمان ٢٠٧

أما الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فيقول (٨) :
« وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة في الأدب العربي وصاحب الفضل في إنشائها » .

وهو هنا لا يتحزب للبديع كزميليه وإنما يقول ذلك إكراما لخاطر أبي دلف حيث أراد بكل وجه أن يثبت أنه الوجه الحقيقي لأبي الفتح الإسكندري بطل مقامات البديع وأنه الشخصية الواقعية التي جسدت بطله ، وليس من شك في أن وجود نماذج سابقة يلقي ظلالة من الشك على هذه القضية .

أما محمود غناوى الزهيرى فقد أسرف على نفسه حين قال (٩) :

« نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحي أو بشكلها الفني المعروف لم تتحقق إلا على يدى بديع الزمان الهمداني ، كما نستطيع أن نقول إن البديع هذا لم يكن متأثرا حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه ، وإنما كان متأثرا بواقع الحياة العامة » .

وهو يريد بذلك أن يؤكد الفكرة التي ألق عليها في دراسته وهي أثر المجتمع البوهي في نتاجه الأدبي ، بل إنه يذهب إلى أن كلام الحصرى لا يدل على خصائص فنية مشتركة بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع وإنما يدل على أنها كانا على طرفى نقيض شكلا وموضوعا (١٠) .

ولقد يكون من السهل أن نرد على ذلك كله بتساؤل واحد هو: لماذا إذن قرن الحصرى بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع ؟

ويحسن هنا أن نستعيد معا كلام الحصرى كما حررناه (١١) ، لنرى أن ابن دريد نفسه قرر في صدر هذه الأحاديث أنه استنبطها من ينابيع صدره وأنتجها من معادن فكره .

وقد قرر الحصرى أن ابن دريد قد أغرب بأحاديثه هذه مما يوحى بالجدّة سواء في البناء أم في المضمون ، ومعنى هذا أنها تختلف عن غيرها من الحكايات التي

(٨) الإسلام والحضارة الإنسانية للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : ٣٥١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

(٩) الأدب في ظل بنى بوية : ٢٣١ وقد تبعه في ذلك جورج غريب : العصر العباسي : ١١٢ ، وعبد النافع طليمات : أهل الكدبة أبطال المقامات : ص ١١ (حصص ، دار ابن الوليد ١٩٥٧ م)

(١٠) الأدب في ظل بنى بوية : ٢٢٦

(١١) راجع ص ٢٥ من هذه الدراسة

يمكن أن يقال إنها أثرت في عمل البديع كأعمال الجاحظ ، وقد كان الحصرى على صلة وثيقة بها ونقل عنها نصوصا طويلة في زهر الآداب .

هذا ما أفهمه من قول الحصرى : « أغرب بأربعين حديثا » لا مذهب إليه الزهيرى من أنها كانت غريبة الألفاظ والمعانى (١٢) .

وسواء أكان البديع قد أنشأ مقاماته معارضة لأحاديث ابن دريد أم معارضة لابن دريد نفسه فإن كلام الحصرى ينصب على هذا العمل لابن دريد دون غيره .

ولاشك في أن وجوه الاختلاف بين العاملين التى أبرزها الحصرى تعنى اتفاقها فيما سواها ، فعبرة الحصرى توحى بأنها قد اختلفا في العدد ، فعلى حين أنشأ ابن دريد أربعين حديثا صنع البديع أربعمئة مقامة .

وعلى حين عدد ابن دريد موضوعات أحاديثه « وتوسع فيها ، إذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة » ، وقف البديع جل مقاماته على الكدية .

وبينا مال ابن دريد بأحاديثه إلى المجون والفحش ، لاح على مقامات البديع طابع الفكاهة والظرف ، وأخيرا نستنتج أنه على حين عطف البديع مساجلة مقاماته ووقف مناقلتها على رجلين ، تعددت في أحاديث ابن دريد الشخوص والأبطال .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن كلمة « أحاديث » التى سمى بها الحصرى أعمال ابن دريد — ان لم تكن تسمية ابن دريد نفسه — تحمل معنى المقامة ، جاز لنا أن نقول اعتمادا على هذه الأدلة التى سقناها إن أحاديث ابن دريد إن لم تكن مقامات بالمعنى الاصطلاحي الذى ظهر عند البديع فإنها لاتقع بعيدا عنها .

هذه هى أهم الفروق بين العاملين وتكمن فيها كما نرى أوجه الشبه . ولقد يحق لى هنا أن أؤيد هذه الدعوى بما يسندها حتى لا يظن ظان أن الذنب لا يقع على « الحصرى الذى اجتهد فحرم التوفيق ، ولكنه يقع على الباحثين المحدثين الذين قلده » (١٣)

ولنقرأ معا ما رقه الحنفى في صدر مقاماته الثلاثين (١٤) :

« وزعت كلامه على مقامات واضحات ، متلوة الكلمات ، مجلوة الآيات ، ساطعة اللفظ والمعانى ، واضحة الوضع والمبانى ، وهى على عدد ليالى

(١٢) الأدب في ظل بنى بويه : ٢٢٥

(١٣) القصة في الأدب العربى القديم : ١٦٣

(١٤) مقامات الحنفى : ٤

الكلم ثلاثون لا أربعون ، ولا كمقامات المضيقين خمسون أو العشرون ، أما أين هذا القطر من تلك الأبحر ، أم أين الساعة من السنين والأشهر ؟ ترى هل جاءت « الأربعون » هاهنا لخاطر السجعة وحدها ؟ لا أظن ذلك بل أحسبها إشارة واضحة إلى أحاديث ابن دريد أو لياليه أو مقاماته .

ولعل هذا يبدو واضحا في عطفه مقامات الحريري والبديع عليها (١٥) .

وإذا لم يكن قد عد مقامات ابن دريد في حسابه ، فلماذا تساءل بصيغة الجمع بقوله : « أين هذا القطر من تلك الأبحر ؟ » ؟

لا شك عندي أن الحنفى عنى بهذه الأحاديث الأربعين لابن دريد ، بل أرى أنه قرأ هذه الأحاديث وتأثر بها حين وضع مقاماته الثلاثين التي تفوح برائحة الجنس والمحاورات الماجنة الخليعة حول الجوارى والغلمان .

ولو أغرقنا في الشك وقلنا إن العرب تستعمل الجمع للدلالة على المثني ، وأسرفنا في تكذيب أنفسنا وقلنا إن الحنفى لم يصرح باسم ابن دريد ، فعلنا نجد ضالتنا عند كاتب آخر من كتاب المقامة في الأندلس ، يقول في إحدى مقاماته (١٦) :

« ... وقال يا أخا الأنصار ، هل سمعت بحديث شصار ؟ ، تنافرت منه الصدور والأعجاز ، وتفادت منه البلاغة والإيجاز ، لا جعد ولا سبط ، ولا ثمرة ولا خيط ، قد لفظته الرواة لفظا ، ولم تحققه معنى ولا لفظا ، فأعرض عما هنالك ، وإياك تلك المسالك ، وهذا الخبر النبيل ، والناسك الأبيل ، قد نشر معارف وعلوما ، وشفى جراحا وكلوما ، سلب فيه محمد بن الحسن جمال الصدق وهاء اللسن ، واستعاذ بالله من ذلك القصص ، ودعا لقائله بالجرح والغصص ، حين شاب الصُّحة بالمرض ، ولم يَرْمِ بسهم إلى غرض ، وعجب من الراوى السامع ، كيف استغر بذلك البرق اللامع وكيف لم يَبْزُغْ له من الحقِّ بازغ حين تَزْغُ بالباطل نازغ ، فقلتُ أجلُّ إنَّ الصنعة عليه لَتَرْفُ ، وإنَّ الدَّعوى عنه لَتَشِيقُ ، ولكن مَنْ لى بهذا الوصف الرائق ، والذكر الشائق ، فساربنى إلى ذئب خالس أو أديب جالس ... »

(١٥) يبدو أنه لم يقف من مقامات البديع إلا على عشرين مقامة كما هو الحال عند ابن شرف .

(١٦) المقامات اللزومية للسرقسطنى : المقامة ٣٨ ص ٤٤٣ بتحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف ، الإسكندرية ، الهيئة المصرية ١٩٨٢ م .

ولا شك عندى فى أن محمد بن الحسن الذى ذكره السرقسطى هو ابن دريد ،
و يؤكد زعمى هذا إشارة السرقسطى إلى شصار وهو رثى خنافر بن التوم الحميرى ،
الذى لا يعرف حديثه إلا من قبل ابن دريد (١٧) .

بل إننى أرى أن هذه المقامة والمقامتين التاليتين التى تنتهى جميعا بأبيات
شينية و يلوح عليها الطابع البدوى تدور جميعا فى جوار أحداث ابن دريد .

ولن تكتب الكلمة الأخيرة فى شأن هذه الأحاديث أو المقامات إلا حين يتم
الوقوف على أصولها التى أرى أن مصدرها إن لم تكن قد كتبت فى جزء مفرد ،
سيكون بعض كتبه المفقودة ككتاب المقتنى (١٨) أو الملاحى (١٩) أو كتابه
الأخبار المنشورة الذى لم تبق منه إلا أوراق محفوظة بالمكتبة الخالدية بالقدس (٢٠)

(١٧) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة : ١٧١/٣ بتحقيق الدكتور طه الزينى حيث يقول ابن
حجر : « خنافر بن التوم الحميرى ، كان كاهنا من حمير ، ثم أسلم على يد معاذ بن جبل وله
خير حسن من أعلام النبوة فى إسناده مقال ، ذكره أبو عمر قلت : وذكره الأزدى ، وقال
إسناده خبره ضعيف ، انتهى . ووجدت خبره فى الأخبار المنشورة لابن دريد . قال : أخبرنى
عمى ، عن أبيه عن ابن الكلبي عن أبيه ، قال : كان خنافر بن التوم كاهنا . . » ، وانظر
قول ابن عبد البر فى الاستيعاب ٢١٦/٣ (على هامش الإصابة) « خنافر بن التوم الحميرى ،
كان كاهنا من كهان حمير ، ثم أسلم على يد معاذ باليمن ، وله خبر حسن فى أعلام النبوة ،
إلا أن فى إسناده مقالا ، ولا يعرف إلا به » ، وراجع خبره كاملا فى أمالى القالى ١/١٦٩ ،
ومن عجب أن الدكتور زكى مبارك لم بعد هذا الخبر بين أحاديث ابن دريد التى رواها
القالى فى أماليه مع وقوفه عليه فى الأمالى وإنكاره له فى حديثه عن النثر الجاهلى ، إذ عده
منقولا عن ابن الكلبي ، راجع : النثر الفنى : ٣٩/١ .

(١٨) ولعله عارض فيه عمله فى « المجتنى » فعلى حين جمع فى المجتنى ما سمع على شيوخه دؤن فى
هذا أخبارا من عنده :

(١٩) ذكره ابن قاضى شهبه فى طبقات النحاة واللغويين ص ٨٤ ، وربما كان تحريفا لكتابه
« المتناهى » .

(٢٠) هى أوراق متفرقة من القسمين الرابع والخامس برقم ١٥ مهمل « دشت » وعنها مصورة بمعهد
المخطوطات العربية برقم ٩١٣ أدب ، عنوانها « الأخبار المنشورة المروية » ولعلها غير أخبار ابن
دريد التى ذكر بربروكلمان (١٨٤/٢) أنها تقييدات لغوية فى أربعة أبواب ، ومنها نسخة
بدار الكتب المصرية تحت رقم « ٦ لغة ش » بخط محمد بن محمود الشنقيطى ، وعنها مصورة
بمعهد المخطوطات العربية (١٢ أدب) وأخرى بمكتبة كلية الآداب بالإسكندرية (١٠ م) .
ومن أخبار ابن دريد أيضا نسخة بمكتبة رئيس الكتاب (رقم ٢٢٩٦٧) وعنها مصورة بمعهد
المخطوطات العربية (١١ أدب) وأخرى بمكتبة جامعة القاهرة (٨٧٩) وتتفق النسختان فى
أنها مجموعة أوراق رقم فى صدرها « من أخبار أبى بكر بن دريد » ولعله تعليق من هذه =

ولكنه على كل حال لن يكون وقفا على أمالي القالى (٢١) .

= الأخبار يختلط فيه الطابع الإخبارى بالدرس اللغوى ومما ورد بهما حديث زواج عثمان بن عفان رضى الله عنه بسائلة، ولم يخل من إشارات تفتقر إلى الاحتشام، وحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه والبطريق ويصيف إلى ذلك دراسات لغوية نهتم اهتماما خاصا بالحروف، كالحروف التى تقع مستعارة، والحروف التى جوزتها العرب أو غلطت فيها. وتحتفظ مكتبة الراوية الحمزاوية تحت رقم ٢٢٦ بمجموعة صغيرة تحمل عنوان « ذكر نسب أبى بكر بن دريد وجل من أخباره »، حيث يرد ذكر نسبه عن ابن هشام اللخمي، ثم يتحدث عن مولده وشيوخه، ويتعرض لشرح بعض فصائده، ثم تظهر أوراق من رحلة يرد فيها ذكر نيل مصر ومدينة دمياط وبحيرة المنزلة، ولغتها ترجح أنها لبعض المتأخرين وليست من كلام ابن دريد.

ويذكر فؤاد سزكين بين أعمال تلميذه أبى مسلم محمد بن أحمد بن على بن الحسين البغدادى « الجزء فيه الفوائد والأخبار عن أبى بكر بن دريد » وهوبين مقتنيات المكتبة الظاهرية، وقد أرسلت فى طلبه قلم أحظ برد، راجع: تاريخ التراث العربى ١/ ٥٣٤ (بتعريب دكتور فهمى أبو الفضل ومراجعة دكتور محمود فهمى حجازى الهيئة المصرية ١٩٧١ م).

(٢١) راجع أيضا « فحولة الشعراء » الذى يرويه ابن دريد عن الأصمعى، وتبدو فيه روح الصنعة، ولعله أوحى للهديع بمقامته عن الشعراء، وأرى أثره جليا فى مقامة ابن شرف النقدية، ومقامة الشعراء للسرقسطى، والمقامة القرطبية، وما جرى مجراها، إذ مضت جميعا على نسق هذا العمل، (فحولة الشعراء للأصمعى، شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى وطه محمد الزينى، القاهرة، المطبعة المنيرية بالازهر، الطبعة الأولى ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م)

(٢) بديع الزمان الهمداني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ)

أحمد بن الحسين يحيى بن سعيد الهمداني ، علم لا ينكر في تاريخ أدبنا العربي ، ينتمي إلى أسرة عربية استوطنت همدان كما يظهر من قوله في إحدى رسائله (٢٢) :

« ... إني عبد الشيخ ، واسمى أحمد ، وحمدان المولد ، وتغلب المورد ومضر المحتد ... »

ويبدو أن البديع لم يكن محبا لهمدان ولم ترق له الإقامة بها ، يظهر ذلك من قوله في رسالة إلى أستاذه ابن فارس (٢٣) :

« واثنتان — أيده الله — قلما تجتمعان ، الخراسانية والإنسانية ، وإني وإن لم أكن خراساني الطّينة ، فإني خراساني المدينة ، والمرء من حيث يوجد ، لا من حيث يولد ، والإنسان من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان ، ارتفع القلم ، وسقط التكليف فالجرح جبار ، والجاني حمار ، ولاجنة ولا نار ، فليحتملني الشيخ على هناتي ، أليس صاحبنا يقول :
لا تلمني على ركافة عقلي . أن تيقنت أنني همداني »

(٢٢) يظن بعض الكتاب المحدثين أنه فارسي الأصل ، ومن ذلك قول جورج غريب « والبديع رغم أصله (كذا) الفارسي يؤثر العرب على العجم ويطعن على الشعوبية وهو ذو عقيدة دينية صحيحة ، ومن المتشيعين للعلويين » ، العصر العباسي : ١٢٥

(٢٣) رسائل البديع : ٢٥٣ ، و يتيمة الدهر للشعالبي : ٢٧١/٤ بتحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م .

لذا نراه يقصد الرى وهو فى مقتبل الشببة (٢٤) ، فيرد حضرة الصاحب و يتزود من ثمارها وحسن آثارها ، بعد أن درس على ابن فارس ، واستنفذ علمه واستنزف بحره ، وقصد جرجان وعایش الإسماعيلية بها ، ثم تحول عنها إلى نيسابور ، حيث وصل إليها سنة (٢٥) ٣٨٢ ، وهناك ألقى مقاماته المشهورة ، وسرعان ما نشبت بينه وبين أبى بكر الخوارزمى المعركة الأدبية التى انتهت بالمناظرة المشهورة سنة ٣٨٣ هـ كما ذكر البيهقى فى وشاح الدمية وقد ذكر أبا بكر الخوارزمى فقال (٢٦) :

« وقد رمى بحجر البديع الهمداني فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وأعان البديع الهمداني قوم من وجوه نيسابور » .

وكان أبوبكر الخوارزمى شيخا موقرا وأديبا مبجلا يعتلى عرش البيان فى عصره فكان فى اقتران اسم البديع به كسب كبير ، ولكن المناظرة التى جرت بينها تظهر — كما تأدت إلينا — أن البديع انتصر على منافسه انتصارا باهرا . (٢٧) .

يقول الثعالبي (٢٨) :

« ثم شجر بينه وبين الأستاذ أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره ، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء ينبرى لمعاداته ويجتريء على مجاراته ، فلما تصدى الهمداني لمساجلته وتعرض للتحكك به ، وجرت بينها مقامات ومباهات (٢٩) ومناظرات ومناضلات وغلب هذا

(٢٤) فى معاهد التنصيص للشيخ عبد الرحيم العباسى . ح ١١٤/٣ بتحقيق محمد عيسى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م

(٢٥) فى معجم الأدباء : ١٦٦/٢ أنه وصل إليها سنة ٣٩٢ هـ .

(٢٦) راجع معجم الأدباء ١٧٣/٢

(٢٧) راجع نص المناظرة فى رسائل البديع : ٥٠ ومعجم الأدباء ١٧٣/٢ والصريح المنبى عن حيثبة المتنبى للسديعى ص ٣٤ بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ م .

(٢٨) اليتيمة : ٢٥٧/٤ — ٢٥٨ ، ومعجم الأدباء : ١٦٦/٢

(٢٩) من معجم الأدباء وفى اليتيمة : مكاتبات ومباهاة

قوم ، وذلك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمداني في الآفاق وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء .

وترك البديع بسابور حيث توجه إلى سجستان ونزل على أميرها خفاف بن أحمد الذي مدحه في ست من مقاماته . ولكنه واصل رحلته حتى انتهى به الأمر في هراة حيث توفي كهلا في الأربعين حين أقبلت عليه الدنيا بعد طون إجفال (٣٠) .

لقد بدأ الثعالبي ترجمة الهمداني بقوله : « هو بديع الزمان ومعجزة همدان » ، ولقد غلبت هذه التسمية على اسمه حتى غطت عليه ، وكان البديع حقيقا بها فقد كان « نادرة الدنيا في سرعة الحفظ ... كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخزم حرفا ولا يخل بمعنى ، وينظر في الأربعة والخمسة (الأوراق) (٣١) من كتاب لا يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهدها عن ظهر قلبه هذا ، ويسردها سردا » .

وكان فصيحاً مفوهاً وشاعراً مفلحاً ، يأتي على البديهة بما يُعجز بعد طول الأناة بل كان « يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة ، بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع » (٣٢) .

ومهما يكن من أمر نبوغ البديع فسيظل سر خلوده كامناً في مقاماته التي أبدع فيها ما شاء له الإبداع والتي تعد أقدم نص لدينا تتبلور فيه سمات الفن المقامى .

ومع اعترافنا بنبوغ البديع ، فلم تكن مقاماته طفرة في تاريخ أدبنا العربى وإنما أنشأها معارضة لأحاديث ابن دريد كما قدمنا ، ولا شك أن البديع وقف على تلك الأحاديث التي تعز علينا الآن ، كما وقف عليها الحصرى والحنفى

(٣٠) يقول عنه ابن العماد الحنبلى : « وكانت وفاته بمدينة هراة مسموما ، وقال الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست جامع رسائل البديع : توفي البديع رحمه الله تعالى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة ، قال الحاكم المذكور وسمعت الثقات يحكون أنه مات من السكتة ، وعجل دفنه فأفاق في قبره وسمع صوته بالليل وأنه نبش عنه فوجده قد قبض على لحيته ومات من هول القبر » ، شذرات الذهب : ١٥١/٣ ،

(٣١) يتيمة الدهر ٢٥٦/٤ وانظر : الصبح المني : ٣٤

(٣٢) يتيمة : ٢٥٧/٤ وانظر : معجم الأدباء : ١٦٥/٢

والسرقسطى ، بل إن هذه الأحاديث كانت أقرب إليه منهم فقد عاش في بيئة فارسية كما عاش ابن دريد من قبل ، ونضيف إلى هذا ما ذكره ياقوت في ترجمة على بن أحمد الدريدي ، قال (٣٣) :

« يكنى أبا الحسن ، ذكره الزبيدي فقال : أصله من فارس ، وكان وراق ابن دريد وإليه صارت كتب ابن دريد بعد موته » .

فلا شك أن هذا الوراق الفارسي الأصل ، والذي كان خصيصا بابن دريد حتى نسب إليه أذاع كتب الرجل بعد وفاته ، وانتهت فيما وراء العراق حيث عاش البديع .

ولعل البديع قد وضع مقاماته بعد أن طالع أحاديث ابن دريد مباشرة ، فالتعاليى ينص على أنه أملى مقاماته بنيسابور حين اتصل البديع برؤسائها من بنى ميكال الذين أنعموا عليه في أول عهده بهم ، ولقد كاف ابن دريد على صلة وطيدة بأهل هذا البيت كما يظهر من قول الأمير أبى نصر بن أحمد الميكالى (٣٤) :

« تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الأبلّة ، وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ، فقال : هذه متنزهات العيون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ فلنا : وماهى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتبى ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر ثم أنشأ يقول :

ومن تك نزهته قينة وكاس تحك وكأس تصب
فنزهتنا واستراحتنا تلاقى العيون درس الكتب»

وقد عدد الآراء حول مؤثرات أخرى في مقامات البديع السندوبى يرى أن رسالة النرجس والندوير التى أنشأها الجاحظ في أحد بن عبد الوهاب هى التى وجهت النفوس إلى مثل هذا اللون من التعبير وأنها وإن لم تكن فى الكدية ففيها

(٣٣) معجم الأدباء : ٢٢٣/١٢

(٣٤) المقامة : ١٥

الدعابة الساخرة ، وسلوب الحوارى الشائق ، وقد تأثر بها الجوارزمى فى رسالته إلى
أبى الحسن البديعى (٣٥)

أما الدكتور شوقى ضيف فىرى أن عملا مفقودا من أعمال الجاحظ تحدث فيه
عن أهل الكدية حديثا طويلا وقص نوادرهم هو الذى أوحى للبديع أن يدير
أغلب مقاماته على الكدية ، ويستدل الدكتور شوقى ضيف على هذا بفصل أداه
إلينا البيهقى فى كتابه « المحاسن والمساوى » نقلا عن عمل الجاحظ (٣٦) ،
ويرتب على هذا أن ابن دريد قد أثر فى البديع من جهة الشكل بينما أثر الجاحظ
فيه جهة الموضوع (٣٧) .

وقد التقط عبد الملك مرتاض هذه الفكرة ولكنه ربط بين مقامات البديع
وعمل آخر من أعمال الجاحظ هو كتاب البخلاء ورأى أن الهمدانى قد قص
شخصية أبى الفتح الإسكندرى القميص نفسه الذى قص الجاحظ
خالد بن يزيد (٣٨) .

غير أن عبد الملك مرتاض أسرف فى القول بأن ابن دريد كان حلقة اتصال بين
الجاحظ والبديع وأنه تأثر فى احاديثه بحكايات البخلاء عند الجاحظ أولا ثم أثر فى

(٣٥) أدب الجاحظ لحسن السندوبى : ٩٩ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ١٩٣١ م وراجع فى التريبع
والتدوير : الجاحظ حياته وآثاره لاستاذنا الدكتور محمد طه الحاجرى : ٢٧٥ — ٣٨٣ .
القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

(٣٦) المحاسن والمساوى المنسوب الى البيهقى : ٢ / ٤١٠ (محاسن السؤال) وانظر ٤١٢ (أصناف
المكدين وأفعالهم) ، ٤١٧ (ومن نوادرهم) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ،
مكتبة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

(٣٧) المقامة : ٢٠

(٣٨) القصص فى الأدب العربى القدم : ١٨٤ وقد ترجم ياقوت لخالد بن يزيد بعوله : « مولى بنى
المهلب ، ويقال له خالويه المكدي كان أدبيا ظريفا بلغ فى البخل والتكدية وكثرة المال
المبلغ الذى لم يبلغه أحد ، وكان متكلم بلبغا قاصدا داهيا ، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد
الدائنى القاصان من غلمانة ، وله أخبار حسان ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها
لطائف وغرائب وهى طويلة تقع فى كراسة ، معجم الأدباء : ١١ / ٤٢ ويرى أستاذنا
الدكتور طه الحاجرى أن الجاحظ أجرى هذا الحديث على لسانه ، البخلاء : ٣٠٤

البديع (٣٩) وهذا أمر لا يمكن التدليل عليه ، وليس مما يجافى المنطق أن يتأثر عمل أدبي بعملين سبقاه مباشرة دون أن يتأثر أحدهما بالآخر .

ومما آخذه عليه أيضا أنه لرغبته العارمة في إبراز دور بخلاء الجاحظ أهمل دور كليله ودمنة بدعوى أنه أدب دخيل على العربية ، ولم يعجب به العرب ، ومن آياته على ذلك أن أحدا من كتابهم لم ينبر لمحاكاته (٤٠) .

ولا يخفى ما فى هذا القول من مخالفة للواقع ، فلقد كان كليله ودمنة ولا يزال ، موضع إعجاب العرب ، وكان الجاحظ نفسه معجبا بكليله ودمنة متأثرا به ، ولا أحب أن أذهب بعيدا فأقول إنه أنشأ كتابه الحيوان متأثرا به على نحو من الأنحاء ، وعلى أية حال فى حيوان الجاحظ ما يشهد بأنه كان معجبا به وبأن الكتاب كان ذائع الصيت متداول بين فتيان الكتاب على عهده (٤١) ، وليس سرا أن كليله ودمنة أحدث حركة أدبية لها شأنها فى الأوساط الأدبية العربية لأمد بعيد ، وفى عهد مبكر نقله أبان بن عبد الحميد شعرا وجاء شعره رائقا حتى قيل إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليله ودمنة ، وقيل إن يحيى البرمكى وهبه لذلك عشرة آلاف دينار (٤٢)

وفى وقت مبكر أنشأ سهل بن هارون (٤٣) كتابه ثعلة وعفرة الذى حاكى به كليله ودمنة (٤٤) ، و يتنافس الشعراء والكتاب بعد ذلك فى هذا المضمار فيضع أبو عبد الله اليمنى نزيل مصر المستوفى فى نهاية القرن الرابع (٤٥٠ هـ) كتابه

(٣٩) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٤٩ ، ١٨٧

(٤٠) القصة فى الأدب العربى القديم : ١٤٩ ، ١٨٧

(٤١) الحيوان للجاحظ ٦ / ٣٣٠ بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مصطفى الحلبي الطبعة الثانية (١٣٨٤ - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٥ - ١٩٦٨ م) .

(٤٢) أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق للصوى : ٢ ، عنى بجمعه ج . هيوارث دن ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية (أبان) ١ / ١٦ ، وقد توفى أبان اللاحقى سنة ٢٠٠ هـ .

(٤٣) توفى سنة ٢١٥ هـ .

(٤٤) معجم الأدباء ١١ / ٢٦٧ وانظر النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه للدكتور عبد الحكيم بليغ ص ١٧١ ، القاهرة مكتبة وهبة ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

« معناهة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب » (٤٥) ، و يضع ابن العبارية (ت ٥٠٤ هـ) منظومتين ، إحداهما « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » والأخرى « كتاب الصادح والباغم » كما نظم ابن ممتى (ب ٦٠٦ هـ) (٤٦) ، وقبل هذا وضع إخوان الصفا رسالتهم المشهورة « الحيوان والإنسان » ، كما وضع أبو العلاء المعري رسالة « الصاهل والشاحج » و كتابه « القائف » (٤٧) الذى مازال مفقودا أوفى حكم المفقود ، وقد قرظه الكلاعى ، فقال : (٤٨)

« ولأبى العلاء المعري فى كتاب القائف إحسان مشهور ، وإبداع كثير موفور ، وهو أكثر من كليلة ودمنة ورقا ، وأفسح طلقا وأطيب شميا وعبقا » .

ولماذا نذهب بعيداً وقد اعترف ابن بطلان فى صدر مقامته الطويلة « دعوة الأطباء » أنه أنشأها على مذهب كليلة ودمنة . وربما تأثر البديع أيضا وهو من ذوى اللسانين بأعمال فارسية أخرى تشبه كليلة ودمنة — ككتاب السندباد (٤٩) — ولكننا لانستطيع أن نذهب بعيداً مع الدكتور أمين عبد المجيد بدوى حين يقول دون تعليل مقنع : (٥٠)

« إن فن المقامة العربية يرجع فى تأليفه إلى أصول هندية فارسية » أومع توماس شنرى T. Chen ery حين يرى أن البديع قد استوحى مقاماته من أساطير التواراة عند اليهود أوقصة لقمان والهستوباداسا Histopadasa فى اللغة السنسكرىتية ثم الهلوية (٥١)

ولكن ب أن أتوقف هنا قليلا لأبرز دور رجلين كان لهما فيما أحسب أثرهما

(٤٥) محمد بن الحسين بن عمر ، راجع طبقات النحاة واللغويين ص ١٠٤ ، وقد حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره بعناية دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦١ م .

(٤٦) راجع الفصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية لحامد عبد القادر ص ٣٩ — ٤٧ ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٥٠ م .

(٤٧) راجع نصا منه فى كتاب العصا لأسامة بن منقذ : ١٣٤ — ١٣٥ .

(٤٨) إحكام صنعة الكلام : ٢١٠

(٤٩) النظر على سبيل المثال فى الفهرست : ص ٤٣٩ كتاب ترجمة نوادر أهل الشرف ، ونوادر أوساط الناس ، ونوادر السفلة والوضعاء .

(٥٠) القصة فى الأدب الفارسى : ٣٣٤ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

(51) The Assemblies of Hariri, P. 32

وانظر بديع الزمان للشكعة : ٢١٣

في عمل البديع أما أولهما فهو الأصمعي عبد الملك بن قريب الراوية اللغوى الذى انفق الشطر الأكبر من حياته متنقلا في البوادي يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ويدون أخبارهم حتى اشتهر بينهم بذلك^(٥٢) وتجمع له منه سيل هائل دونه في كتاب ضخيم سماه «نوادير الأعراب» ولقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من تراثنا الأصيل، ويمكن أن يعزى إلى هذا الكتاب كثير مما رواه ابن دريد عن الأصمعي وأدته لنا أمالي القالى وغيرها.

ومع ما تحققه نوادر الأعراب من الفوائد العلمية المتمثلة في المعارف اللغوية، والمتعة الفنية المتمثلة في طرافه الخبر والنادرة كما لحظ الجاحظ^(٥٣).

«إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألد في الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء....»

فإن شخصية الأصمعي وملكوته الأدبية تلوحان في كثير مما يروى عنه، حتى لانستطيع أن نقرر أن هذه الأحاديث جميعا وقعت كما رواها، فلا شك في أنه أضاف إليها من عنده رغبة في تحسين الخبر وحبك الحكاية، ولعل بعضها كان من صنعه هو ونسج خياله^(٥٤)، ويمكن أن نرى ذلك واضحا في النادرة التالية^(٥٥):

«قال الأصمعي: طلعت من جامع البصرة، فطلع على أعرابي، فقال: من الرجل؟ قلت: من بنى أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه من آيات الرحمن، قال: اتل على، فتلوت (والذاريات)، فلما بلغت قوله: (وفي السماء رزقكم وما توعدون)، قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرتها، وقسمها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى قوسه وسيفه وكسرها وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن تهيف بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرا، فسلم على واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح

(٥٢) المهر: ٣٠٥/٢ - ٣٠٨

(٥٣) البيان والتبيين ١: ١٤٣

(٥٤) الأصمعي: ج ١، ص ٢٦٦

(٥٥) ص ١٥٣ من نسخة «المعالم» من مخطوطات

وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال وهل غير هذا ؟ فقرأت : (فوب
السماء والارض ! -ه لحق) فصاح وقال : يا سبحان الله ، من الذى أغضب الجليل
حتر . حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثاً ، وخرجت معها
نفسه »

لمثل هذا يذهب الدكتور عبد الجواد الجومرد إلى أن الأصمعى قد تولدت عنده
ملكة صنع النادرة على شكل قصة صغيرة ينسبها إلى الأعراب و يودع فيها شيئاً مما
حفلت به ذاكرته من روائع اللغة والأدب والشعر (٥٦) ، وأن هذا دفع بعض
الأدباء المغمورين على مر الأجيال إلى اصطناع النوادر ، وادعاء نسبتها إلى
الأصمعى طلباً لرواجها بين الناس (٥٧) ومن أوضح الأمثلة على هذا قصة عنتره
التي يظهر فيها الأصمعى راوياً بلغ من الكبر عتياً (٥٨) .

ولذلك كله نذهب مع الدكتور عبد الجواد الجومرد إلى القول بأن الأصمعى أثر
في مدرسة المقامات كما أثر في غيرهم (٥٩) .

أما الرجل الآخر وهو أبو المطهر الأزدي فأقرب عهداً إلى البديع إذ عاش في
بغداد في القرن الرابع الهجرى ، وقد وضع كتابه الموسوم بحكاية أبى القاسم
البغدادى ليصور الجانب اللاهوى العاثر من الحياة البغدادية في ذلك العهد .

و يشبه أبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات البديعية أبا القاسم البغدادى في
عدة أمور منها الكنية التى استعير بها عن التصريح بالاسم ، ثم نسبة كل منها
إلى بلد بعينه ، وأشد من هذا أنها بطلان خيالان وإن زعم أبو المطهر أن بطله
شخصية حقيقية عايشها فترة من الدهر (٦٠) .

وإذا كان أبو الفتح الإسكندرى قد جبل على الخبث والدهاء والاحتيال ، إذ
ضرب أبو القاسم بسهم في ذلك كله ، فهو يدارى أهل المجلس ويخدعهم عن نفسه

(٥٥) الأصمعى : ٢٦٨

(٥٧) الأصمعى : ٣٢٤

(٥٨) الأصمعى : ٣٢٥ وبروكلمان (مغرب) : ١٤٨/٢

(٥٩) الأصمعى : ٢٧٢

(٦٠) النثر الفنى : ٤١٧/١ ، والنثر الفنى وأثر الجاحظ فيه : ٣٠٤-٣٠٥

متظاهرا بأنه من أهل التقى والعفاف ، حتى إذا لمس فيهم الرغبة في الهزل انقلب شيطانا ماردا عالما بفنون الخلاعة وضروب المجون (٦١) .

و يبدو أن تأثر البديع بأبي المطهر لم يقف عند رسم جوانب شخصية بطله بل تعداه إلى بعض مواد كتابه فالتشائم الذي جرى بين الإسكندري وبعض بني ساسان في المقامة الدينارية له شبيه في حكاية أبي القاسم البغدادى ، وفي رسالة الخوارزمي التي وجهها إلى أبي الحسن المعروف بالبديهي الشاعر يعث به (٦٢) ، وسرد البديع لأنواع اللصوص في المقامة الرصافية شبيه بسرد أبي المطهر لألفاظ الملاحين وألوان المراكب (٦٣) .

ولا شك أن أبا المطهر هو الذي أثر في البديع والخوارزمي ، فعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بحياته فقد صرح في كتابه بأنه كان شابا ماجنا في سنة ٣٠٦ للهجرة (٦٤) ومعنى هذا أنه توفي في منتصف القرن الرابع ، أما الخوارزمي والبديع فقد توفيا في أواخر هذا القرن ، وقد وضع الأخير مقاماته سنة ٣٨٢ هـ كما قدمنا .

و يصرح بديع الزمان الهمداني في غير موضع من رسائله أنه وضع أربعمائة مقامة في الكدية ، يقول :

« رسالة إلى أبي المظفر ولد أبي الحسن البغوي يشكو إليه أباه (٦٥) : ... يبلغني أن أباه دائم العبث بلحمي ، والتنقل بشتى ، وأنه حسن البصيرة في بغضي ، كثير التناول من عرضي ، ولعمرك إن دم الصديق لا يشرب

(٦٠) النثر الفني في القرن الرابع : ٤١٧/١

(٦٢) راجع مقامات البديع : ٢١٧ ، وحكاية أبي القاسم البغدادى لأبي المطهر الأزدي : ١١٣ ، ١١٥ (في وصف الشقييل) ، بتحقيق هيدلبرج ، مطبعة كرل ونتر ١٩٠٢ م ، ورسائل الخوارزمي : ٢٣٥ وما بعدها (بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٧٠ م) ، وانظر النثر الفني : ٤٢٤/١ ، بديع الزمان (مارون عبود) : ٣٥ .

(٦٢) راجع مقامات البديع : ١٥٧ ، وحكاية أبي القاسم : ١٠٧ - ١٠٨ وانظر النثر الفني : ٤٢٠/١

(٦٤) حكاية أبي القاسم البغدادى : ٨٧ ، وانظر النثر الفني : ٤٢٥/١

(٦٥) رسائل البديع : ٣١٥

على الربق ، ولحم الوريد لا يصلح للقديد ، والولى لا يقلى ، ولا ينخذ لحمه نقلا
بالقدح ، وعلى إملأنا بالجرح ، أويقصر سعيه و يتداركه وهنه فيعلم أن من أملى
من مائة الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى وهو
لا يقدر بها على عشر حقه الأيهاج (٦٦) لكشف عيوبه ، والسلام .

يؤكد هذا المعنى فى رسالة أخرى نقض فيها قصيدة لأبى بكر
الخنوارزمسى (٦٧) : « ... وما كنت لأكشف تلك الأسرار وأهتك هذه الأستار ،
وأظهر منه العار والعوار ، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا ، وتجهيز قدح
علينا فيما روينا من مقامات الإسكندرى من قوله إنا لا نحسن سواها ، وإنانقف
عند منتهاها ، ولوأنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات أو عشر
مفتريات ، ثم عرضها على الأسماع والضماثر ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ،
فإن كانت تقبلها ولا ترجها ، أوتأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح
وعلى إملأنا بالجرح أويقصر سعيه و يتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات
الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وهو لا يقدر منها
على عشر حقيق بكشف عيوبه ، والسلام »

ولقد حق للمعاصرين أن يتساءلوا ، كيف أمكن للبديع أن يؤلف هذا العدد
الضخم من المقامات ؟ ولماذا لم ينته إلينا منها إلا نحو ثمن هذا العدد ، بالرغم من
تعلق الناس فى عصره وفى العصور التالية بهذا النوع من التأليف الأدبى ؟ حتى
لقد نظر بعضهم إلى هذا العدد بعين الشك والارتياب ، وهذا مارون عبود
يقول (٦٨) :

« ... ولكن هذا غير صحيح ، لم يقل ذلك أحد غير الهمداني نفسه » .

ولكن اعتراض مارون عبود من هذه الجهة مردود لأننا نجد الثعالبى معاصر
البديع يؤمن على كلامه حيث يقول (٦٩) :

(٦٦) فى الأصل : نهج (تصحيح)

(٦٧) رسائل البديع : ٢٣٦

(٦٨) بديع الزمان : ١٨

(٦٩) اليتيمة : ٢٥٧/٤

« واملئ أربعمئة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكدية وغيرها (٧٠) »
 وضمنها ماتشهى الأنفس وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق قريب المآخذ بعيد المرام ،
 وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجد يروق فيملك القلوب ، وهزل
 يشوق فيسحر العقول . »

وعبارة الثعالبي تدل على أنه طالع هذه المقامات وأعجب بها إعجابا شديدا ،
 ولقد نقل ياقوت في معجمه عبارة الثعالبي (٧١) دون اعتراض على هذا العدد ،
 ونحن نعرف مقدار معرفة ياقوت للكتب وأصحابها ، وقد عبر صراحة أنه يرى يتيمة
 الثعالبي أفضل مصدر لترجمة البديع (٧٢) .

ومن جهة أخرى ذكر الحصري الذي كان معاصرا قريب العهد هو الآخر
 بالبديع ، ونرجح أنه لم يقف على ترجمة البديع في اليتيمة (٧٣) ، أنه وضع
 أربعمئة مقامة ، وقد نقل عددا من هذه المقامات في كتابه زهر الآداب (٧٤) ،
 وقد نقل الكلاعي ألفاظ الحصري في كتابه إحكام صنعة الكلام (٧٥) كما نقلها
 عنه ياقوت في معجمه (٧٦) ، وهذا أيضا نرد على عبد الملك مرتاض الذي يرى أن
 الحصري قد أخطأ في ذكر عدد مقامات البديع حين ارتآها أربعمئة (٧٧) .

(٧٠) انظر مع هذا قول الدكتور شوقي ضيف : « ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة الموضوعات » ، =

= بل جعلها تدور على موضوع واحد ، وهو الكدية أو الشحاذا الأدبية (عصر الدول والإمارات :
 ٦٧٠ ، دار المعارف بمصر ١٩٨٠) .

(٧١) معجم الأدباء : ١٦٥/٢ ، وانظر أيضا ١٦٦/١

(٧٢) المرجع السابق : ١٦١/٢

(٧٣) انظر إحكام صنعة الكلام : ١١٩ حيث قال الكلاعي : « وكنت سمعت عن بعض شيوخنا
 أن الجزء الرابع من كتاب اليتيمة دخل الأندلس مختصرا ، حتى وقفت على ذكر الحافظ
 (يعني البديع) فيه ورأيت فاستدلت على صحة ما سمعته ورأيت ، فإنه اقتصر فيه على ذكره ،
 ولم ينه على جلالة قدره ، وفصاحة نظمه ونثره ، كما فعل أبو منصور عند ذكر غيره »

(٧٤) راجع زهر الآداب : ٣٠٥ ، ٣٤٣ ، ٥١٨ ، ٥٤٣ ، ٦٠٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٧٣٣ ، ٧٨٩ ،
 ٨٢٣ ، ٨٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٨٨ ، ١٠٤٠ ، ١١١١ ، ١١٣٢ ، ١١٥٤ .

(٧٥) إحكام صنعة الكلام : ١٢٠ ، وانظر أيضا : ١٩٨

(٧٦) معجم الأدباء : ١٦٩/٢

(٧٦) القصة في الأدب العربي القديم : ١٦٢ ، وانظر أيضا قول الدكتور أنس داود : « وقد اختلف
 القدماء في عدد مقامات البديع » مع أنه لم يذكر سوى قول الحصري والثعالبي ، وهما
 متفقان على أنها أربعمئة ، دراسات نقدية ٢٢٣

أما قول بروكلمان (٧٨) : « وبديع الزمان ينتخر في أحده » ، رسائله بأنه
 « منصف أربع مائة مقام » ، وطبعي أنه لا ينبغي فهم هذا العدد هنا على معناه
 الحرفي ، فهذا محمد بن شرف القيرواني (المتوفى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) ، لم يكده
 يعرف في كتابه أعلام الكلام ، عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون
 عدد المقامات التي أثرت و بقيت لنا وهو إحدى وخمسين مقامة ، قد ثبت منذ
 زمن طويل ، لأن الحريري عارض هذا العدد بمثله « ، فردود من عدة جهات ،
 منها الفارق الشاسع بين أربع مائة مقامة وإحدى وخمسين ، ومنها أن المعارضة
 لا تعني الالتزام العددي بقدر ماتعني الالتزام بالخصائص الفنية ، ولوعنت ذلك
 لكان الحريري التزم أن تكون مقاماته إحدى وخمسين ولكان ابن ماري الذي
 صرح بمعارضة البديع والحريري لم يرتفع بعدد مقاماته إلى الستين ولم يهبط به
 الحنفى إلى الثلاثين (٧٩) ، ومنها أن قلة ما وقف عليه ابن شرف من هذه
 المقامات ، إنما يؤكد أن هذه المقامات قد تعرضت ليد العبث والضياع منذ وقت
 مبكر وأنها قد تأدت إلى الناس متناثرة مفككة الأوصال وهذا واضح في قوله
 : (٨٠)

« وعددها فيما يزعم روايتها عشرون مقامة ، إلا أنها لم تصل هذه العدة إلينا »
 ومع التقدم في الزمن نجد محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، وهو من أعلام القرن
 السادس يقف على ضعف هذا العدد ، حيث يقول (٨١) :
 « وقد أجرينا ذكر المقامات في ذكر بديع الزمان ونبينا على ماله فيها من

(٧٨) بروكلمان (مرب) : ١١٣/٢

(٧٩) وهذا أيضا نرد على الدكتور محمد رشدي حسن في قوله : « وهناك دليل قوى في مجال العدد
 الذي ذكرناه ، وهو أن المقامات التي جاءت بعد البديع دارت في فلك الخمسينيات أو أقل ،
 ولم يصل إلى ستين مقامة تأليفا إلا إليازجي في مجموعة مقاماته : مجمع البحرين » ، تطور فن
 المقامة (خط) : ٣٩ ويتضح من كلامه إغفاله لمقامات ابن ماري الستين ، أما تطلبه
 المقامات المفقودة في زهر الآداب للحصري فلا وجه له .

(٨٠) أعلام الكلام : ١٤ بتصحیح عبد العزيز أمين الخانجي (القاهرة ، مكتبة الخانجي ،
 ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م) .

(٨١) إحكام صنعة الكلام : ١٩٨

الإبداع والإحسان ، وأن له أربع مائة مقامة في غاية الجودة والفخامة والذي وصل
إلى منها نحو الأربعين » .

ومما يدعو للتأمل أن عدد مقامات البديع ظل موضع اختلاف حتى بين
الدارسين المعاصرين ، فهي أربعون عند زكى مبارك^(٨٢) ، كما كانت عند
الكلاعي ، وهي خمسون عند موسى سليمان^(٨٣) وإبراهيم على أبو خشب^(٨٤) ،
وهي واحدة وخمسون عند مارون عبود^(٨٥) وعمر فروخ^(٨٦) وبروكلمان في قوله
السابق ، واثنان وخمسون في موضع آخر^(٨٧) ، ثم هي اثنتان وخمسون أيضا عند
مصطفى الشكعة^(٨٨) .

وأنا لا أخرج من إضافة مناظرته مع الخوارزمي إلى جملة مقاماته المعروفة التي
تأدت إلينا لتصير ثلاثا وخمسين مقامة .

ولعل من أطرف الآراء في تعليل هذا العدد والاختلاف حوله قول عمر
فروخ^(٨٩) :

« مقامات بديع الزمان إحدى وخمسون — وهي كل ما ألف — ولا أرى أن
هذا العدد اتخذ اعتباطا فلعل بديع الزمان لما سمى هذا الفن (المقامات) وكانت
كل مقامة مجلسا ، جعله عدد المجالس ، بعدد أسابيع السنة الهجرية ، ولعل
الخلافا في العدد بين الخمسين وبين الواحد والخمسين راجع إلى ذلك فإن السنة
الهجرية خمسون أسبوعا ونحو أربعة أيام » .

وهذا رأى تغنينا طرافته عن مناقشته وتفنيده .

و يستبعد عبد الوهاب عزام أن يضيع هذا العدد الضخم من مقامات البديع

(٨٢) النثر الفني : ٢٨١/١

(٨٣) الأدب القصصي عند العرب : ٢١٣ (بيروت ، مكتبة الدراسة ، ودار الكتاب اللبناني ، طبعة
رابعة ، ١٩٦٩ م) .

(٨٤) تاريخ الأدب في العصر العباسي الثاني : ٥٣٢

(٨٥) بديع الزمان : ٣٥

(٨٦) الرسائل والمقامات : ٢٢ (بيروت ، مكتبة منبج ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م) .

(٨٧) بروكلمان (مغرب) : ١١٢/٢

(٨٨) بديع الزمان : ٢٣٠

(٨٩) الرسائل والمقامات : ٢٢

على كلف الناس بها ، و يرى أن البديع إنما أُملى أربعين مقامة في الكدية وحرفت الكلمة إلى أربعمائة ، وتتابع على ذلك النساخ ، وعد عبد الوهاب عزام من مقامات البديع التي بين أيدينا خمسا وثلاثين مقامة في الكدية ، وتصور أن البديع عد خمسا أخرى من مقامات الكدية ، وعي هذا يرى أن البديع أُملى أربعين مقامة بنيسابور ، ثم أضاف إليها الأخريات بعد ذلك ، ومنها المقامات الست التي مدح بها الأمير خلف بن أحمد الذي اتصل به بعد خروجه منها (٩٠) .

ومع أن أحد تلاميذ عبد الوهاب عزام وهو مصطفى الشكعة ، قد رد عليه رأيه هذا بقوله (٩١) :

« وهذا رأى يقوم على الاستنتاج المعقول والمنطق الهادىء ولكن وبرغم ذلك ما الذى يمنع من أن يكون بديع الزمان قد كتب أربعمائة مقامة بالفعل ولدينا من قدرته الخارقة وذكائه النادر الشواهد الكثيرة التى تثبت تلك القدرة ، هذا بالإضافة إلى أن كثيرا من الكتب القيمة لأئمة الفكر والأدب من أمثال الجاحظ وأبى حيان والدينورى والبلخى وغيرهم قد ضاعت مع فرط حرص الناس عليها ، والمقامات بجانب هذه الكتب لا تعد أمرا خطيرا »

فإن شوقى ضيف بنى رأى عبد الوهاب عزام فقال (٩٢) :

« و يصرح الحصرى بأن بديع الزمان أنشأ أربعمائة مقامة ، ومن قبله صرح بذلك الثعالبي فى اليتيمة ، بل صرح به بديع الزمان فى بعض رسائله ، وربما كان ذلك غلطا من ناسخ الرسائل ، فجرد معارضة بديع الزمان لابن دريد فى احاديثه يقتضى أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضا ، و يظهر أنه صنع فى نيسابور أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستا فى مديح خلف بن أحمد فى اثناء نزوله عنده ، كما زاد خمسا أخرى ، وبذلك أصبحت المقامات نيفا وخمسين » .

ومع هذا أدعى أن البديع قد وضع أربعمائة مقامة ، ثم أضاف إليها بعد ذلك مقاماته فى خلف بن أحمد وغيرها كمقامته الحمدانية التى يذكر الحصرى أنه

(٩٠) مجلة الرسالة : العدد ٤٥ المجلد الثانى للسنة الثانية : ص ٨٢٤

(٩١) بديع الزمان : ٢٣١

(٩٢) المقامة : ١٧

أنشأها سنة ٣٨٥ هـ لأسباب أجملها فيما يلي :

* اتفق القدماء مع البديع على أنه أملى بنيسابور أربعمئة مقامة ، ولم يصرح أحد منهم بالشك في هذا العدد أو يلصح إليه .

* يذكر البديع أن إملاءه المقامات كان بيد البغوى و بيد الخوارزمى ، وأنها كانا مشتغلين بالنقض عليه فيما أملاه ، وهذا يمنع من المغالاة في عدد مقاماته خاصة حين يجرحها فيما يكتب ، ولم يحفظ لنا عن البغوى أو الخوارزمى ما يرد هذه الدعوى ، ومن جهة أخرى تدل كتابة البديع في حياة الخوارزمى على أن هذا العدد قد اكتمل له في وقت مبكر ، إذ مات الخوارزمى في السنة التالية لمناظرتهما المشهورة .

* ينقل عبد الرحيم العباسى نص الثعالبى دون أن يعلق عليه (٩٣) ، ثم ينقل عن مقامات البديع فيورد مقامته البغدادية وقد عدّها السادسة ، وهذا يوحي بأن مقامات البديع كانت بجوزته كاملة (٩٤) .

* لم يعمر البديع إذ عاجلته المنية في الأربعين من عمره ، وكان له حساد ، ولعل هذا كان سببا في ضياع الكثير من مقاماته ، كما ضاع غيرها من تراثنا الأصيل ، وكما بظهر أيضا في آثار البديع الأخرى ، فالديوان الضئيل الذى جمع له لا يفي بما ذكر عن وفرة نظمه وترجمته للأشعار الفارسية إلى العربية ، ولا ينهض بما حفظ لنا عن قدرته الفائقة على النظم على البديهة ، وكما هو الحال أيضا بالنسبة إلى رسائله التى لم يتمكن من جمعها فجمعها بعد موته أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست كما يخبرنا ابن العماد الحنبلى (٩٥) .

* ويدل على هذا أيضا أن هذه المقامات لم تتأد إلى الناس جملة واحدة ، فلم يقف معاصرو ابن شرف القيروانى في القرن الخامس إلا على نحو العشرين منها ، ثم تضاعف هذا العدد في القرن السادس فرأى

(٩٣) معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى : ١١٤/٣

(٩٤) هي الثانية عشرة في نشرة الشيخ محمد عبده

(٩٥) شذرات الذهب لعبد الحى بن العماد الحنبلى : ١٥١/٣ (القاهرة ١٣٥٠ هـ) .

الكلاعى منها أربعين ، ولم تزل الزيادة فيما يعرف من هذه المقامات تطرد إلى أن صارت ثنتين وخمسين .

* ولقد جاء بعض هذه المقامات مبتورا أو كالمبتور ، حتى قال مارون عبود : إن البديع وضعها دون استعداد (٩٦) .

وأرى أن هذه المقامات المبتورة تدل على أحد أمرين ، أولهما أن يكون البديع قد وضعها على هذا النحو ، وحينئذ لا عجب في أن يكون قد وضع أربعمئة مقامة مثلها أو أكثر ، والآخر ، وهذا ما أميل إليه ، أن تكون يد الضياع قد امتدت إلى أطراف هذه المقامات ، كما اجتشت مقامات آخر من أصولها .

وإذا كان عبد الملك مرتاض يقول (٩٧) :

« ... أين هذه الأربعمئة ؟ إن البديع كان يعتبر (؟) كل مقامة بمثابة قصة بمفهومنا نحن المحدثين ، وقد كتب ما ينيف عن (كذا) خمسين مقامة لم يكدر يغادر شيئا يتصل بحياته (؟) وحياة معاصريه إلا تناوله بالكتابة ناقدًا وساخرًا ، فإذا يمكن أن يقول في ثلاثمئة وخمسين مقامة أخرى ، وهو العدد الضخم الذى لم يصل إلينا ؟ إنه من السخف أن يحاول محاول أن يزعم أن هذا العدد قد ضاع »

وإذا صرفنا النظر عما في هذه العبارة من المبالغة والتعميم في إطلاق الأحكام فإننا نذكر بقول الثعالبي إن مقامات البديع كانت في الكدية وغيرها ، ونحيل إلى مقامات البديع الموجودة بين أيدينا لنرى كيف اختفى أبو الفتح الإسكندري في بعضها وظهر آخرون كبشربن عوانة ، ونذكر أيضا بقول الحصرى أنه جعلها مناقلة ، بل نتوقف عند مناظرة البديع للخوارزمي لنرى كيف تحداه أن يكتب كتابا إذا عكست سطره كان جوابا ، وآخر يخلو من الحروف العواطل ، وثالث إذا قرىء معرجا كان شعرا ، إلى آخر ذلك من الألوان التى سماها الخوارزمي شعبة . (٩٨)

(٩٦) بديع الزمان : ٣٦

(٩٧) القصة في الأدب العربى القديم : ١٦٣

(٩٨) رسائل البديع : ٥٠ ، والصبح المنبى : ٤٨

وحينئذ نرد على تساؤل عبد الملك بتساؤل آخر : أين هذه الأبواب من القول التى باهى بها البديع الخوارزمى من إنتاج البديع الأدبى ؟ إننا لانجد شيئا منها بين رسائله التى تأدت إلينا ، ولا نجدها أيضا فى مقاماته التى بين أيدينا . وإننى أرى هذه الأبواب التى سماها الخوارزمى شعبذة البناء الذى أقام عليه البديع العدد الأكبر من مقاماته ، وهى التى أوحى للحريرى فيما بعد بألغابه اللغوية ، وزخارفه اللفظية بل تبقى لنا نتف فى ديوان البديع لاشك أنها ترجع إلى هذه المقامات المفقودة فن ذلك معمى فى النعل أو السفينة (٩٩) :

وشاكية تكذبُ تن ولا تتسعبُ
مؤخرها مخرج مقدماتها سبب
وأولها حسيية وآخرها عقرب
تعد ليوم القيرى وساعة مات غضب
وتركب لكنها إلى راحة تركب
وتذهب لكنها إلى الحين لاتذهب
وتكتب لكنها بلا تلم تكتب
ولاشك أن مكان هذه الأبيات مقامة من مقامات البديع ، وقد تأثر بها الحريرى فى غير موضع من مقاماته ، نرى ذلك فى المقامة الثامنة المعرّية حيث يصف الإبرة وهو يومىء إلى صفات الجارية ، ويصف الميل وهو يومىء إلى صفات الغلام بل تمثلها تماما فى مقامته الثالثة والأربعين « البكرية » حيث جمع بين وصف الناقة والنعل (١٠٠) .

لهذا كله نرى أن الجانب الأكبر من مقامات البديع مازال مفقودا مجهولا ، وأن الكلمة الأخيرة فى عمل البديع لم يحن وقتها بعد ، وكل موازنة بين عمله وعمل الحريرى تعد محاولة قاصرة متعجلة .

بقى لنا أن نذكر رأيا ينفرد به بروكلمان ، إذ يرى أن الخوارزمى قد يكون أسبق إلى عمل المقامات من بديع الزمان (١٠١) :
المزقين بهذه الصناعة

(٩٩) ديوان البديع : ١٠ وانظر أيضا معمى فى الكرسي ص ٩ وآخر فى الوسادة ص ١٠ (القاهرة ،

مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م)

(١٠٠) مقامات الحريرى : ٤٧٩

(١٠١) بروكلمان (مغرب) : ١١٢/٢

« وبيدع برهان الحمد في المنكر في المقامات في الأدب العربي إد »
يكون مفاصلة الخوازمي من هذه النسخة في ذلك »

و بيدي بروكلمان راية هذه على وجود مقامات يبرر فيها عيسى بن هشام كـ
في مقامات بديع الزمان الهمداني مع نسخة بايزيد رقم ٢٦٤٠ من رسائل
الخوارزمي (١٠٢)

ومع أننى لم أطلع على هذه النسخة وقد أرسلت في طلبها للتحقق من صحة
ذلك ، فإننى أكاد أنكر أن يكون أبو بكر الخوارزمي قد كتب مقامات على نحو ما
فرسائل البديع (١٠٣) تشهد بأنه إلى حين كتابتها لم يكن الخوارزمي قد كتب شيئا
على هذا النحو ، ولقد تحداه البديع أن يروض طبعه على خمس مقامات أو عشر
مفتريات ، ولا أحسب أن هذا الشيخ الكبير قبل أن ينساق وراء هذه الدعوة
المتحدية من هذا الشاب المفتون بنفسه ، ومما يخالف طبائع الأشياء أن يثرّب
الخوارزمي على عمل المقامات و يقلل من شأنها ثم يجري جواده في مضمارها ،
ولوتصورنا أنه فعل لما قبل أن يستعير اسم راو يته .

إن أحدا غير بروكلمان لم يذكر أن للخوارزمي مقامات ، كما أن رسائله التي
طبعت مرارا لا تحمل بين أوراقها مقامات أو ما يشبه المقامات ، وأغلب الظن أن
تكون هذه المقامات التي تضمها أوراق نسخة بايزيد مع رسائل الخوارزمي بعضا
من مقامات بديع الزمان المفقودة ، فقد كان الخوارزمي يحتفظ بها ولعابنقدها ،
ولعلها انضمت إلى أوراق رسائله أولعل هذه النسخة من رسائل الخوارزمي
كانت بحوزة البديع خاصة وقد ذكر بروكلمان أن جامع هذا المخطوط قد عاب
أشعار الخوارزمي عيبا شديدا (١٠٤) .

ومن نسبوا أيضا إلى عمل المقامات أو نسبت إليهم أعمال مقامية أبونصر
عبد العزيز بن محمد بن نباتة المعروف بابن نباتة السعدي ، وقد ترجم له الثعالبي في
شعراء بغداد ، فقال (١٠٥) :

(١٠٢) بروكلمان (مغرب) : ١١١/٢

(١٠٣) رسائل البديع : ٢٣٦

(١٠٤) بروكلمان (مغرب) : ١١١/٢

(١٠٥) يتيمة الدهر : ٣٧٩/٢

« من فحول شعراء العصر وآحادهم ، وصدور مجيديهم وأفرادهم الذين أخذوا برقاب المصافى ، وملكوارق المعانى ، وشعره مع قرب لفظه بعيد المراء ، مستمر النظام يشتمل على غرر من حر الكلام كقطع الروض غب القطر وفقر كالغنى بعد الفقر ، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار ، وعهد الشباب ، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب » .

وربما كان ابن نباتة مولعا بالقصص ، فها يروى له في نظم مثل من كلية ودمنة قوله (١٠٦) :

أحسد قوما عليك قد غلبوا وكلّ من بادر المنى غلبا
وكننت كالكرم في تكرمه تلتف أوراقه بما قربا

ومع هذا يبدو أنه لم يتخط ذلك ، فشهرة الرجل تعود إلى جودة شعره الذى توفر عليه ، ولم أجد فى ترجمته ما يدل على اشتغاله بغيره من فنون الأدب ، غير أن بروكلمان ذكر أن ابن نباتة خلف مقامة مازالت مخطوطة فى برلين : ٨٥٣٦ (١١٧) ، وكما هى العادة تناقل باحثونا قوله وعدوه قضية مسلما بها (١١٨) ، وعمدوا إلى صوغ عباراتهم بما يخلع عليها سمة الذاتية ، وأهملوا الإشارة إلى مصدرهم ، موحين بأنهم تثبتوا مما ذكروا ، بل لقد توسع بعضهم فى الأمر كما فعل ابراهيم على أبوخشب فعاد ابن نباتة السعدى من كتاب المجموعات المقامية ، قال : (١١٩) :

« فعمل مقامات ، ولكنه لم يبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته »

ع . أن أحدا من هؤلاء جميعا لم يقف على هذه المقامة أو المقامات التى تحدث

(١٠٦) المرجع السابق : ٣٩٤/٢

(١٠٧) بروكلمان (مرب) : ١١٦/٢

(١٠٨) انظر على سبيل المثال : فى القصة والمقامة : ٣٣ ، رأى فى المقامات : ٣٤ ، المقامة : ٧٦
الأدب القصصى عند العرب : ٢٠٩ ، مقامة نوىسى : ٣١ .

(١٠٩) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى : ٥٣٢

عنه - طمأن - لع . ولقد وقف مؤخرًا على نسخة مصورة من هذه المقامة بعد -
 بعض النسخة كسور جورج (1072) (1) (2) بإهدائها إلى مربيها ، صلب أولاهم
 الطريق إلى . والنظرة الأولى إلى هذه المقامة تبعث الشك في نسبتها إلى ابن بياتة
 السعدى أو إلى أحد رجال عصره أوبيته المشرفية ، وتوحى أنها كتبت في عهد
 متأخر ، فهي تسعى في بعض أجزائها إلى تقليد المقامة الحصبية وبعض المقامات
 الحريرية التي تشبهها وهي تحمل من أوصاف الأنهار والأطيار والأزهار والرياض
 ملامح أندلسية واضحة ، فإذا طالعنا المقامة ووصلنا إلى المخلص المدحى الذي
 تهدف إليه تأكيد لنا ذلك ، فالكاتب يصرح باسم ممدوحه الذى يقول في حقه :
 « قاضى القضاة ، وموئل العفاة ، لسان الحقيقة ويدها ، شهاب الشريعة
 ومحمد ، الشهاب المستنير لشمس العلاء على شمس السماء أبو عبد الله محمد
 ابن أبى العباس أحمد الخليق بالصدور والقلوب ، من المجالس والمواكب ، فى
 النزول والركوب ، المستضاء به الغرب والشرق ، الحاحل الحاوى يافعا سبقات
 السبق »

وربما كان هذا الممدوح اسما غامضا فى تاريخنا الأدبى والسياسى ، غير أن
 صاحب النجوم الزاهرة قد نص عليه صراحة حين تعرض للحديث عن عبد المؤمن
 ابن على صاحب المغرب فى وفيات سنة ٥٥٨ هـ ، فقال (١١٠) :

« ذكر العماد الكاتب الأصفهاني فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله
 محمد بن أبى العباس لما أنشده :

ماهر عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار إليه بأن يقتصر على هذا البيت ، وأمر له بألف دينار »

فإذا رجعنا إلى العماد الكاتب (١١١) فى خريدته وجدنا ترجمة مبتورة تكاد
 تقتصر على الخبر الذى أورده صاحب النجوم الزاهرة ، إلا أنه يسمى المترجم باسمه

(١١٠) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٦٣/٥ (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية) ، وانظر
 البيت دون عزوفى الكامل فى التاريخ : ٢٤٤/١١ (حوادث سنة ٥٤٤ هـ) .

(١١١) الخريدة/القسم الرابع (شعراء المغرب والأندلس) : ١٥٢/١ ، بتحقيق عمر الدسوقي وفى
 عبد العظيم ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ١٩٦٤ ، وانظر رايات المبرزين
 لابن سعيد المغربى ص ١٤٥ بتحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ، مطابع
 الاهرام التجارية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

الذى شهر به وهو « محمد التيفاشى » نسبة إلى تيماش وهى مدينه تونسية ، وقد قدم على ترجمته ترجمة أوفى لابن أخيه يحيى بن التيفاشى القفصى ذكر فيها أنه من قفصة مدينة بالقيروان ، وأنه انتقل إلى قابس وسكن بها ، وقتله الإفرنج بصقلية بعد سنة خمسين وخمسمائة (١١٢)

ومهما يكن من أمر هذه المقامة بعد ذلك ، فإن كاتبها أديب مغربى أو أندلسى من أهل القرن السادس ، ولا يصح فى الأذهان أن تكون من إنشاء ابن نباته السعدى الذى ينتمى إلى القرن الرابع الهجرى .

ولو صحت نسبة هذه المقامة أو غيرها إلى ابن نباتة لكان أولى من البديع بريادة الكتابة المقامية ، إذ كان أسرّ من صاحبه بإحدى وثلاثين سنة ، ومعنى هذا أن ابن نباتة كان شيخا فى الخمسين حين كان بديع الزمان يافعا لم يناهز العشرين من عمره ولم تكتمل فى يديه آلة الكتابة بعد (١١٣) .

{ ١١٢١ } الخريدة / القسم الرابع : ١٥٠ / ١

{ ١١٣ } ولد البديع سنة ٣٥٨ هـ بهمدان ومات بهرات مسموما سنة ٣٩٨ هـ ، على حين ولد ابن نباتة السعدى سنة ٣٢٧ هـ ببغداد ومات بها سنة ٤٠٥ هـ .

الفصل الرابع المقامات بعد البديع

١ - في المشرق :

إذا كنا نستبعد أن تكون للخوارزمي أولابن نباتة السعدى مقامات سبقا بها بديع الزمان ، أو قلدا بها مقاماته ، فإن المساحة الزمنية القصيرة التى تمتد بينه وبين الحريرى ، العلم الآخر الكبير فى عالم الفن المقامى ، تحفل بأسماء كثيرة جرت فى مضمار الكتابة المقامية متأثرة بعمله فى مقاماته أو بأعمال أخرى معاصرة أو سابقة .

وبعض هذه الأسماء يحيط به غير قليل من الشك (١) ، أما الجمهرة الغالبة فشخص لها مكانها فى تاريخنا الأدبى والفكرى ، ومن هؤلاء المختار بن الحسن ابن عبدون ، أبو الحسن الطبيب النصرانى المعروف بابن بطلان ، و يبدو أن ابن بطلان لم يوفق إلى الارتزاق بصنعتة فى بغداد لما كان موسوما به من قبح الهيئة ، فخرج عنها إلى غيرها من البلاد ، ولكنه منى بالإخفاق ، فانتهى الأمر به إلى أنطاكية حيث التمس العزاء فى الترهيب ، كما يوضح ابن العبرى فى ترجمته (٢) :

(١) من هؤلاء أبو الإصبع عبد العزيز بن تمام العراقى الذى عده بروكلمان من رجال القرن الرابع ، وذكر أن له مقامات فى الكيمياء عليها شرح لمحمد بن تميم مازال مخطوطا بدار الكتب المصرية ، ثم ذكر أن المخطوط يحدد وفاته بسنة ٧٦٢ هـ ، راجع بروكلمان (مغرب) : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٧ ، وقد ذكر فى بديعات الزمان : ١٢٩ عن بروكلمان أن له مقامة فى البعث ، وانظر أيضا : رأى فى المقامات : ٣٤ .

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى : ٣٣١ بعناية الأب أنطون صالحاسى اليسوعى ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية . ١٨٩٠ م) ، وانظر أيضا إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى : ١٩٢ (بتصحیح السيد محمد امين الخانجى ، القاهرة مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ) ، حيث استعملت ألفاظ ابن العبرى .

« وكان مبهشوه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه ، وفضل في علم الأوائل وكان يرتزق بصناعة الطب ، وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها ، وخرج عنها إلى مصر فأقام بها مدة قريبة واجتمع بها مدة قريبة واجتمع بابن رضوان المصرى الفيلسوف في وقته وجرت بينها منافرة أحدثتها المطالبة في المناظرة ، وخرج ابن بطلان عن مصر مغضبا على ابن رضوان ، وورد أنطاكية وأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خياطه الانقطاع فنزل بعض الأديرة بأنطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة الى أن توفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة » (٣)

ومن مؤلفات ابن بطلان كتاب تقوم الصحة الذى نشرت له ترجمة لاتينية في استراسبورج عام ١٥٣١ م (٤) ، ورسالة اشتراء الرقيق ، والذى يعنينا هنا كتابه « دعوة الأطباء » الذى وصفه ابن العبري بأنه « مقامة ظريفة » (٥) وقد نشر هذا الكتاب بعناية الدكتور بشارة زلزل في الإسكندرية عام ١٩٠١ بعنوان « دعوة الأطباء على مذهب كلية ودمنة » ، ويختلط الأسلوب المقامى عند ابن بطلان فيه بطبيعة القصص الحيوانى قال في أوله (٦) :

« هذه رسالة دعوة الأطباء على مذهب كلية ودمنة ، تشتمل على مزج يبسم عن جد ، وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما أغنى جده وألهى هزله ، صنفها أبو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان من أمثال الحكماء وكلام البلغاء ، ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد المتعلم بسهلها إلى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ، و يظهر للقارئ فضل الأدباء المهرة وعجز المخترقين بهذه الصناعة ... »

(٣) في بديعات الزمان : ١٢٩ ، ورأى في المقامات : ٣٣ عنها أنه توفى سنة ٤٦٠ هـ وهو وهم .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : ٩٩/١

(٥) تاريخ مختصر الدول : ٣٣١ ، وانظر هذه العبارة أيضا في : إخبار العلماء ص ١٩٥ .

(٦) دعوة الأطباء لابن بطلان : ٩ (بتصحیح الدكتور بشارة زلزل ، الإسكندرية المطبعة الخديوية ١٩٠١ م) .

ومع أننا نوافق الدكتور إحسان عباس حين نرى أثر المقامة في هذه الرسالة أشد وضوحاً ، فإننا لا نؤيده حين يقول (٧) :

« أما ما جاء في مقدمة الكتاب من أنه صيغ على أسلوب كليل ودمنة ، فذلك ضرب من الوهم لا يثبت للفحص أبداً »

فالنظرة الفاحصة إلى هذا العمل تظهر موافقته كليل ودمنة في الشكل ، إذ يقوم في جملة على عدة مواقف — أو حكايات — يفضي بعضها إلى بعض ، و يسوق سابقها إلى لاحقها (٨) ، وموافقته إياها في المضمون حين يسعى إلى رعاية تعليمية تهذيبية واضحة ، يتجه فيها إلى النقد الأخلاقي ، بالكشف عن طباع الناس وفلسفة مواقفهم في أسلوب يشغف به الناشئة والعامّة ، و يرضى عنه الخاصة .

« وتظهر في الشام شخصية كبيرة كان لها باع طويل في فنون الشعر والنثر هي شخصية أبي العلاء المعري (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) صاحب « رسالة الغفران » التي يرى شوقي ضيف أنه استلهم فكرتها من المقامة الإبلسية للبديع كما فعل ابن شهيد ، وهو بذلك يبطل نزاع المتخصصين حول رسالة الغفران والتوابع والزوابع وأيهما أثرت في الأخرى (٩) وشوقي ضيف يصدر في هذا الرأي عن إمام واسع بترائنا الأدبي والفكري ولا يقلل من شأن استنتاجه هذا قول الدكتور درويش الجندی (١٠) :

« على هذا الاستيحاء مفصور على الشكل فقط ، فرسالة الغفران من حيث رمزيّتها تخالف رمزية المقامات إذ أنها أثر من آثار الضغط الفكري والخوف من الاتهام بالزندقة والخروج على الدين ، أما المقامات فهي أثر من آثار الضغط الاقتصادي » .

(٧) ملامح يونانية في الأدب العربي : ص ١٦٧ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٧ م)

(٨) راجع قول الدكتور إحسان عباس : « وتألّف دعوة الأطباء من اثني عشر فصلاً ، أو إن شئت فقل من اثني عشرة مقامة » ملامح يونانية : ص ١٧٠

(٩) المقامة : ٣١ ، عصر الدول والإمارات للدكتور شوقي ضيف : ٦٧٣ (القاهرة دار المعارف ١٩٨٠ م) ، وراجع أيضاً المهرجان الألفي لأبي العلاء : ٢٧١ حيث يشير عبد القادر المغربي إلى تأثير المعري بمقامات البديع .

(١٠) الرمزية في الأدب العربي : ٣١٩ (القاهرة ، مطبعة نهضة مصر) .

ونحن نوافق الدكتور بنت الشاطيء حين تذكر على بطرس البستاني عذ رسالة الغفران والمقامات من جملة الملاحم ، ولكننا لانستطيع أن نذهب عنها بعيدا حين تحاول إنكار أوجه الشبه التى لاتنكر بين رسالة الغفران والأعمال المقامية مع أنها اعترفت صراحة بوجود هذا الشبه فى النسيج اللفظى لبعض المواقف من حيث المزاج والسجع القصير ، ثم فى تخيل المواقف لعرض فكرة أو مادة (١١) .

وللمعري رسالة أخرى وضعها قبل رسالة الغفران بخمس عشرة سنة هى رسالة الصاهل والشاحج (١٢) ، يظهر فيها كيف زاوج المعري بين العمل المقامى والقصص الحيوانى .

ومع هذا كله فأنا أتوقف عند قول ياقوت فى جريدة مؤلفات أبى العلاء : (١٣) :

« كتاب يعرف بالسجع السلطاني ، يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة ، وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقتة ، لا قدم له فى الكتابة فسأل أن ينشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلته خبرته بالأدب ، فألف هذا الكتاب ، وهو أربعة أجزاء ، وكتاب يعرف بسجع الفقيه ، جزء ثلاثون كراسة ، وكتاب لطيف يعرف بسجع المضطرين ، عمله لرجل مسافر يستعين به على أمور دنياه » .

ولو أننا حاولنا إعادة اكتشاف هذا النص لوجدنا أن هذه الكتب المسجوعة ، السجع السلطاني ، وسجع الفقيه ، وسجع المضطرين تنبىء بمحاولات مقامية ، ولعل سجع الفقيه هذا يكون قريبا من عمل الحريرى فى مقامته الثانية والثلاثين ، أما سجع المضطرين فلا شك أنه أقرب هذه الأعمال إلى فن المقامة الذى يقوم على شخصية أديب معوز محتاج جواله ، يدفعه الاضطرار إلى أن يخادع

(١١) رسالة الغفران للمعري : ٢٩ بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ١٩٦٩ م .

(١٢) رسالة الصاهل والشاحج للمعري ، بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، مقدمة المحققة ، ص ٤٢ (القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥) .

(١٣) سجع الأدباء : ١٥٥/٣

الناس عن أشيائهم بأسجاعه وأشعاره . ولعل هذا كله يوافق قول باقوت : « إنّه عمله لرجل مسافر يستعين به على أمور دياره » .

« وفي النصف الثاني من القرن الخامس بظهر في بغداد (١٤) عبد الله بن محمد بن الحسين بن داود بن نايقا الأديب الشاعر اللغوي المترسل ، وكان ابن نايقا بارعا في فنون عديدة ، اختصر الأغاني في مجلد واحد ، ووضع شرحا على كتاب الفصيح ، كما ترك ديوان شعر كبيرا وديوان رسائل ، وألف مجموعا سماه « ملح المماثلة » وكتاب الجمان في تشبيهات القرآن الذي نشر مرارا (١٥) عن نسخة الأسكوريال ، وهي النسخة الوحيدة المعروفة له حتى الآن ، وبها نقص كبير ، وله مقامات أدبية ذكرها العماد فقال (١٦) :

« وله مقامات أدبية معروفة بين أهل الأدب » ،

وكانت هذه المقامات مشهورة في وقت ابن خلكان والسيوطي (١٧) ، ويشير بروكلمان إلى نسخة وحيدة منها في مكتبة الفاتح (١٨) ، يحتفظ معهد المخطوطات العربية بمصورة لها تحت رقم ٧٧٨ (أدب) (١٩) ، وقد نسخت هذه المقامات سنة ٥٢٩ هـ ، وتذكر قائمة معهد المخطوطات أنها عشر مقامات وقع بأولها خرم .

(١٤) إنباه الرواه : ١٣٣/٢ وفي بغية الوعاة : ٦٧/٢ وطبقات المفسرين للداودي : ٢٥٥/١ بتحقيق علي محمد عمر ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، مطبعة الاستقلال ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ووفيات الأعيان : ٩٨/٦ وقيل « عبد الباقي » ولد سنة ٤١٠ هـ وتوفي سنة ٤٨٥ هـ ويظن محمد أبو الفضل إبراهيم أنه قلد الحريري في مقاماته ، وهذا وهم ظاهر ، راجع مقدمة شرح مقامات الحريري للشرشي ص ٩ .

(١٥) نشره أحمد مطلوب وخديجة الخديشي في بغداد سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م وفيها أيضا نشره عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية في الكويت (المطبعة العصرية) ورأى الدكتور مصطفى الصاوي الجويني أنها لم يحققوا القراءة الصحيحة للنص — كما تشير جريدة الأخطاء التي ألحقها عبد الوهاب محمد علي العدواني في رسالته التي تقدم بها للجامعة القاهرة عن تحقيق شرح ابن نايقا للفصيح — فأعاد نشر الجمان ، وظهرت الطبعة الأولى من نشرته المصرية سنة ١٩٧٤ (الإسكندرية — منشأة المعارف) .

(١٦) الخريدة : العراق : ٢٣٨/٢

(١٧) وفيات الأعيان : ٩٨/٦ ، وبغية الوعاة : ٦٧/٢

(١٨) بروكلمان (معرب) : ٢٤٣/٥

(١٩) قائمة الأدب : ٥٣٠

وقد نشرت هذه المقامات في استانبول سنة ١٣٣١ هـ مع مقامات الحنفى (٢٠) ، وفي هذه المطبوعة تظهر المقامة الثانية إثر المقدمة ، وتنتهى المقامات بالتاسعة على حين تختفى المقامة السابعة ، ومعنى هذا أن المطبوع قد أدى إلينا سبع مقامات (٢١) ، وقد ألحق الدكتور محمد رشدى حسن برسالته مقامته الأولى وهى تدور حول أكل العنب (٢٢) ، ولكن الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى يرى أن للرجل أكبر من عشر مقامات ، وقد عبر عن ذلك بقوله : (٢٣)

« وعندى أن للرجل أكثر من عشر مقامات ، لأن السواقط من المطبوع هن الأولى والثالثة والسابعة والعاشرة ، فالرابعة التى فى المخطوط هى الثالثة فى المطبوع ، والثامنة فى هذا هى السابعة فى ذاك ، فعليه لا يكون ترتيب المطبوع وعدده صحيحين قياسا على المخطوط ، ولكن بروكلمان لا يذكر للرجل أكثر من تسع مقامات ، ويشير المستشرق الفرنسى هيوار إلى مقامة عاشرة لم يقف عليها . »
و يقدم ابن ناقياً لمقاماته بقوله : (٢٤)

« هذه حكايات أحسن العبارة فيها ، وهذبنا ألفاظها ومعاينها ، وحلوناها فى حلى البلاغة على سامعها وراوها ، وقد سلك بعض المتقدمين هذا المذهب فى مثلها - رياضة للخاطر وتحدياً للقريحة ، غير نائل جفیرها للمرمى ، ولا رايدا لسوامها عند أحد مرعى ، وإنما وسمتها باسم مستعار على عادة الشعراء فى تشبيب القاصد ، والحكماء فى وضع الحكمة على ألسنة البهائم ، وليس ذلك بمحذور ، وإنما هو تصرف فى العبارة وراحة من تعب الجدل إلى ملح البلاغة . »

وهنا لانجد وجهاً لاعتراض الدكتور يوسف نور عوض على ابن ناقياً فى مقدمته هذه حين يرميه بالسطحية فى فهم القصص الحيوانى (٢٥) ، إذ لم يكن القصص على لسان الحيوان من هموم الرجل هاهنا ، تشهد بذلك مقاماته التى اختفى منها

(٢٠) مقامات الحنفى وابن ناقياً : ١٤٣ - ١٤٣ .

(٢١) توهم محققاً النشرة الكويتية من الجمان أنها ثمانى مقامات ، راجع المقدمة : ص (ك)

(٢٢) تطور فن المقامة : ٩٥ نقلاً عن المستعرب الفرنسى Hmart فى

Les Séances D'Ibn-Naḡiyya. P. 16- 17

(٢٣) الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقياً بتحقيق وتقديم الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ، المقدمة : ص ٢٧ (الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٧٨ م)

(٢٤) مقامات الحنفى وابن ناقياً : ١٢٣

(٢٥) فن المقامات بين الشرق والغرب : ١٤٨

العنصر الحيوانى ودارت جميعا على شخوص بشرية ، وكل مانفهم من هذه المقدمة أن الرجل أراد أن يؤكد لنا ولنفسه — كما فعل الحريرى وابن الجوزى فيما بعد (٢٦) — أن التشخيص فى هذه المقامات ليس محظورا وليس من مناهى الشرع ، وأن بعض المتقدمين قد سبقه إلى هذا الميدان وجوز لنفسه وضع مقامات مماثلة ، كما صنع الحكماء حين أنطقوا الحيوان . وكما يصنع الشعراء حين يشبهون فى مطالع قصائدهم فيذكرون أسماء لاشخوص لها ويحسّمون حبايب لا وجودَ لهن ، ويخترعون مواقف غرامية لم تكن . وهذا يتضح بجلاء فى القسم الأخير من المقدمة حيث يقول :

« وكان ابن عباس رحمه الله إذا أكثر من الجّد قال احمضوا ، بر بد الأخذ فى ظرف الأحاديث ، كما تتمرأ الإبل بالحمض إذا بشتت الكلا ، وقد ورد من أمثال العرب ما يستحيل فى الحقيقة على ما استعمل له ولا يسمى ذلك كذبا وقالوا على لسان ولد الضب يخاطب أباه :

قد هدموا بيتك لأبا لكا وزعموا أنك لاأخا لكا
وأنا أمشى الدأ لا حوالكا

أنشد ذلك محمد بن يزيد فى كتاب الكامل ، وهو من نفيس الكتب ، يرويه أصحاب الحديث ، ونحن فلم نبلغ فيما أوردناه فى هذه المقامات إلى هذا الحد وان كنا قد مزجنا فيها اللعب بالجد ، ونعوذ بالله مما أسخطه من خطل القول ، ونرغب إليه فى تغمدنا بالتجاوز والعفو، إنه ولى الرغبة إليه إن شاء الله »

والذى نفهمه حقا من هذه المقدمة بعد ذلك أن الرجل أراد أن يطلعنا على مقصده الفنى الخالص فى هذه المقامات التى لم ينشئها قصدا للهجاء ، أو ابتغاء للنوال كما أكد لنا أن شخوصها غير حقيقية ، وأن حوادثها مخترعة لم تقع ، ولكن

(٢٦) راجع قول الحريرى فى مقدمته : « على أنى وإن أغمض لى الفطن المتغابى ، ونضح عنى المحب المحابى ، لا أكاد أخلص من غمر جاهل ، أوذى غمر متجاهل ، يضع منى لهذا الوضع ، ويندد بأنه من مناهى الشرع ، ومن نقد الأشياء بعين المعقول ، وأنعم النظر فى مبانى الأصول ، نظم هذه المقامات فى سلك الإفادات ، وسلوكها مسلك الموضوعات ، عن المعجذات والجمادات ، ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات ، أو أتم روايتها فى وقت من الأوقات »

الدكتور يوسف نور عوض توقف عند جانب من العبارة شغله عن سياق الحديث فاتهم الرجل بما ليس فيه من السطحية والجهل ، فلم يكن منصفاً في الحكم على هذه المقدمة ، ومن ثم لم ينصف الرجل في سائر أحكامه على هذه المقامات .

وأول ما يلاحظ على ابن نايقا أنه أدار مقاماته على بطل واحد هو اليشكري ، واليشكري عنده فضولى واغل وارش سارق ، ولكنه لم يجعل له راوية واحدا كما هى الحال عند البديع ، بل إن راويته دائماً نكرة لا تعرف ، فهو يبدأ مقاماته بمثل قوله : « حدثنى بعض الفتاك » ، أو بعض الشاميين ، أو بعض الأصدقاء ، أو بعض أهل الأدب ... إلى آخر ذلك ، وكان تعدد الرواة سبباً إلى خفوت شخصية الراوية التى تبدو غالباً شخصية غائمة ، فالراوية عنده لا يكاد يقوم إلا بدور القاص ، وليس له فيما عدا ذلك دور يؤديه فى المقامة .

ومن الواضح أن ابن نايقا جعل مقاماته مواقف منفصلة إلا من جهة البطل الذى يظهر بدوره فى ثوب جديد فى كل مقامة ، وربما لم يبد ابن نايقا تعاطفاً مع بطله أو لم يحسن لنا حيله وألأعيبه ، بل كان على حد تعبير الدكتور يوسف نور عوض يقسو عليه قسوة كبيرة (٢٧) ، ولكن هذا فى الحقيقة لا يحسب على الرجل بقدر ما يحسب له فإنه لم يهدف إلى إعلاء شأن البطل أو تصوير جوانب مشرقة فيه تخفف من إحساننا بتجريمه ولو أنه عمد إلى ذلك ثم أخفق لكان مقصراً ، ولكنه أراد أن يعرض لنا فى كل مقامة صورة من صور الأمراض الاجتماعية التى تفشت فى عصره ، مجسدة فى بطله ، وكان أقرب إلى روح الفنان حين لم يعلق عليها بصوت الخطيب أو الواعظ بل ترك لنا حرية الحكم عليها .

ولنا بعد هذا أن نرفض قول الدكتور محمد رشدى حسن (٢٨) :

« ... وحتى المعنى الساقط الذى يعبر عنه يأتى به ، ويقف سلباً إزاءه لا يحاول على الإطلاق ، أن يبين سقوطه وانحلاله ، وكان الهمدانى من قبله مع واقعيتيه لا يسكت على عبث ولا يرضى أن يدافع عن خطيئته ، بل هو يتلاءم مع الذوق الإنسانى الدينى والذوق الأدبى معا » .

(٢٧) فن المقامات : ١٥٢

(٢٨) تطور فن المقامة : ٩٨ وانظر ص ٩٧ ، ٩٩

فهذا الكلاء لا يعبر عن فهم صحيح لروح العمل الفني في مقامات البديع وابن ناقياء على السواء .

ولعل ابن ناقياء في ذلك كله حاول التحرر من أسر البديع في رسم شخصيتي البطل والراويّة ، كما حاول التجديد في موضوعات مقاماته بالبعد عن موضوعات الكدية الصريحة ، وإن وقع قريباً منها .

ونتوقف قليلاً عند مقامته الثانية لنراه يروها عن بعض الفتاك ، يصوره لنا وقد خرج ليله في سلاحه يعترض أبناء الطريق فوق نطره على شخص لم ينتظم مثله سلك النظر ، حتى وقع في خاطره أنه من غير البشر ، فتتبعه خلصة « وإذا به قد اقتحم منازل أهل البلى وسكان الثرى ، لا يرقب فيهم ذمة ، ولا يرحم لهم زمة ، فجعل يطأ الأجداث ويخترقها ويستافها ، وينتشقها ، حتى وقع على ضالته ، وأدرك دفين ليلته ، فرأيت منه العجب العجائب ، في سفى تلك الاحجار والتراب ، حتى وصل إلى البائس في ذلك القصر الدامس ، فجبذه من ضريحه ، ونبذه على صفيحه فسلب أكفانه ، وحطم إرانه »

ولكن حركة العسس والطواف أزعجته فعدل بسلبه إلى مثذنة فاعتلاها ووقف في الناس خطيباً فذكر وخوف ، ووعظ واستعطف ، حتى تعالى بكاء القوم ، فدهش الراوية من فعله وتبعه في الطريق إلى أن سأله عما بين فعله وأدبه فبدهه بقوله : « لم يخف على فضولك منذ الليلة فما عليك من ذى العيلة » ، ثم احتج عليه بقول النبي (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض) ، فلما صاح فيه الراوية « ويحك يعنى في استخراج النبات ، لافي نبش الأموات » ، استطال عليه إذ لم يكن أولى منه بالتأويل ومضى عنه وهو ينشد معرضاً به :

أنا ابن عم الليل وابن خاله إذا دجا دخلت في سرباله
مساذا يرينى الليل من أهواله لست كمن يجزع من خياله
وهكذا نجد عنده طرافة الموضوع ، فبطله نباش قبور وهو في ذلك وإن كان يدخل في الإطار العام للكدية بمعناها الواسع إلا أنه اختار جانباً جديداً ربما لم يسبق إليه ، وقد أجاد في حبك الحكاية ، فهذا الفتاك الذى خرج مدججاً بالسلاح ليعترض السابلة أزعجته هيئة البطل فتتبعه وقد نجح ابن ناقياء في تشويقنا إلى سبر غور هذا المخلوق والاطلاع على حقيقة امره .

تم أجاد ابن ناقياً في تصوير هجمة البطل على الصبور واستطاع ان يثير
الاشمئزاز من سوء فعله بفرسته وقد عبر عن ذلك بألفاظ سهلة تشيع فيها سجة
مقبولة ، ثم اختلق عقدة معقولة قطعت على بطله طريقه ، ولكنه يخرج من هذا
المأزق بسعة حيلته يعدل إلى المسجد فيقف بالناس خطيباً يرغب و يرهب إلى أن
أبكى الناس وكان يمكن أن تنتهي المقامة عند هذا الحد ، ولكن ابن ناقياً شاء أن
يلقى مزيداً من الضوء على هذه الشخصية الغريبة الأطوار فيا جرى بين البطل
والراويّة من حوار يطلعنا فيه على جانب من تفقه الغريب الذي يبرره به سوء
فعله .

وأظننا لانفهم بعد ذلك أن ابن ناقياً قد وضع هذه المقامة عن المفسرين أهل
التأويل في سبيل الهدف الدنيوي ، لا يهتمون بالوسيلة وإن كان لهم المظهر الخداع
بالدين (٢٩) ، كما يرى الدكتور مصطفى الصاوي الجويني ، فالشكري في هذه
المقامة لم يكن مفسراً وإنما كان نباش قبور ، أما قوله « لست بالتأويل أولى مني »
ففيه إشارة إلى دهائه وتعرضه بمحدثه الذي كان هو الآخر قاطع طريق .

ومن المقامات التي برع ابن ناقياً فيها مقامته السادسة التي يظهر الراويّة فيها
واحداً من المتكلمين ، على حين ألبس الشكري ثياب الدهرية ، وقد علل لالتقاء
بطله على اختلاف مشاربها بأن الراويّة دخل إلى بستان في يوم قانظ ليستظل فإذا
بالبطل وقد أخذ به السكر كل مأخذ وما يزال يعاقر الخمر ، و يترنم بأنواع من
الشعر ، ولم يكن للراويّة — المتكلم — بد من احتمال أضغاثه فرارا من الحر ، فلما
أنس إليه البطل قدم إليه كأساً فامتنع لأنه من أصحاب الكلام ومن لهم نظري
الدين ، وهنا انبرى البطل — الدهري — إلى جداله فقال :

« ما تقول في هذه الكأس ؟ — وأجال الماء والخمر فيها — أثبتان معا أم بطل
أحدهما أم دخل في الآخر فلا يجوز أن يبطل أحدهما لأن هاهنا خمر وماء ؟
ولا يدخل كل واحد منهما في صاحبه فيصير داخلا في نفسه وإنما هما ثابتان
وبالاختلاط وقع التغير والاستحالة ، ولا كون ولا فساد إلا باستحالة ، والطبيعة
اثنتان إحدهما مستعلية على الكون والفساد والأخرى معرضة الأجزاء لذلك ،
والإنسان مركب منها وهو يحيى بالنفس النامية وينتقل بالنفس المتحركة ،

و نعلم الأتياء بالنفس المميرة . وانفس في الأحياء تمرارة الصورة في الهولاء .
وهي المحركة للأحساء . وهذه الخمره خركه للنفس وهي نفس الكان فسر . »

وكان ابن سافا قد فطن إلى اسنطاله هذا الحوار من جانب واحد . فصور لنا
صاحبه وهو ينصرف الى عب خمره ثم يعاوده وسواسه يقول : « والحركة أول كرك
طبيعي ولها معنيان الشوق والمعل » ، وشرح ذلك ، ثم أخذ يربس قول
أرسطوطاليس : « إنه لما لم يكن للالسان أن يبقى بشخصه اشتاق إلى أن يبني
بصورته » ، وانتهى في هذيانه الى التصريح بجوهر عقيدته فأنشد بيتي أبي نواس :

بأح لسانى بمضممر السرّ وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بعد الممات منبعث وإنما الموت بيضة العقر

وهنا يتيح ابن ناقيالراو يته دورا أكبر في هذه المقامة حين ينكر على صاحبه
ما انتهى إليه من ذلال من إنكار للبعث والحساب ، وبين له أن قدرة الخالق على
بعث الخلق بعد فساد أجزائهم وتفرقها في الثرى بينة كما أن الحب لا ينبت إلا بعد
الدمفن واللال والبيضة لا تفرخ إلا بعد الفساد والانفعال ، ثم كان أن تلا
شيئا من الذرائع في هذه المعاني ، وهنا يسرع الدهرى إلى الاعتراض ، فاعترض
على قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) ، بقوله « وفي أوان كل
محاق يقع الإدراك واللاحاق ، ثم في كسوف الشمس ، يكون الإدراك الحقيقي » ،
و ينبرى المتكلم لتفسير الآي الكريمة وإبراز معانيها ، والدهرى يجدد إنكاره
واعترضه .

و ينهى ابن ناقيال مقامته نهاية موفقة حين يقول على لسان الرواية :

« فقال : دعنى من خرافات المتكلمين وأقاويل المشرعين ، ولم يزل يعينى
كفره ، حتى مال به سكره ، فتوسد جانبه الوحشى ، إلى العشى ، وجعل يفيخ ،
ولا يريخ ، ويرسلهن كسهام الحنايا إلى الرمايا ، وأقبل الناطور فقال : ما فعل
اليشكرى ؟ فقلت : بل ما أظن التيس ، إلا من عبد القيس » .

بهذه الصورة الهازلة ينهى ابن ناقيال مقامته ليخفف شيئا من وطأة الحبران
العقلى الذى دار فيها ، ويومئ في الوقت ذاته إلى انصراف هذا الدهرى عن

سماع صاحبه ، وإصراره على ما يعتقد من إنكار للبعث واعتراض على آيات الكتاب العزيز ، ولهذا عدّ ما قال صاحبه ضرباً من الخرافات ، ونام عن سماع كلامه . وكأن ابن نايقاً بهذا يشير إلى تجاوز الأضداد في مجتمعه وتباين أصحاب الآراء والأفكار والمذاهب .

أما قول الدكتور يوسف نور عوض (٣٠) :

« والمقامة الوحيدة التي حاول أن ينطق فيها اليشكري بمدلولات فكرية كان البطل فيها سكران مما لا يجوز أخذ كلامه مأخذ الجد » .

فردود لبعده عن الفهم الصحيح لطبيعة العمل الأدبي والفني ، ألم يكن سكر الدهري داعية إلى انطلاق لسانه بما قد يتحرز من قوله حال صحوه ؟ ألم تكن فيه ترجمة عملية لمروقه عن الدين ؟ وكان توطئة هيأت للكاتب / سوق حديثه عن الخمر والنفس ؟ وكان في هذا ما فيه من إبراز المفارقة في تناول هذا السكران لآي القرآن بالاعتراض ، وفي محاولة المتكلم غير المجدية لرده عن ضلاله .

ولأريد أن أقول إن الاعتراض على آي القرآن على لسان سكير أخف وطأة على نفس المتلقى ، فقد كان ابن نايقاً نفسه متها في دينه ينسب إلى التعطيل ومذهب الأوائل (٣١) ، وربما كان متلبساً بطله في هذه المقامة .

ومهما يكن من أمر فإن ابن نايقاً بسوقه هذا الحجاج على لسان السكير الدهري في جداله المتكلم ، لم يقع بعيداً عما فعل البديع حين ساق نقده المتكلمين على لسان المجنون — بطله — في المقامة المارستانية ، فكان نقده لهم على لسان مجنون أشد وأنكى .

لقد كان الدكتور مصطفى الصاوي الجويني أشد إنصافاً للرجل حين قال (٣٢) :

(٣٠) فن المقامات : ١٥٢

(٣١) راجع مواضع ترجمته

(٣٢) وانظر أيضاً قول محققى نشرة الجمان الكويتية : ص (ك) « وهدفه من هذه المقامات كما أوضحه في مقدمتها — هو شحذ القريحة ورياضة الفكر والملح والإحاض » ، ولكننا نستطيع أن نتبين لها أهدافاً أخرى تتجاوز ذلك ، بل تتجاوز اللغة والأدب والغريب إلى عرض كثير =

« والمصامه السادسة عن الدهر بين من احطر المقامات ، فيه نقاش مع الدهرية حول نظريتهم في الكون والفساد ، وإنكارهم البعث ، وهى الإشارة الواضحة لابن نايقا في مهاجمة الدهر بين القرآن من جهة المعنى والأسلوب »

على أنى لا أوافق الدكتور الجوينى على أكثر ما ذهب إليه في تعليقاته القصيرة على مقامات ابن نايقا ، فلا أوافقه على أن المقامة الرابعة « عن اللغويين يعرض فيها ابن نايقا لطالبى النوال ولديهم ثروة اللغة و يصورهم كثيرى الإلحاح والاحتياال فهم يتعامون أو يتجوعون (؟) طلبا للرفد بثقافتهم اللغوية » ، ولكن الذى أفهمه أن الإشكرى وقف بالباب سائلا فاصطنع لسان الأعراب كما تظاهر بالعمى وادعى أنه مبتلى زمن .

و يقول الدكتور الجوينى (٣٣) :

« المقامة التاسعة : (عن الكتاب والمغنيات) يصور فيها ابن نايقا مجالس الكتاب التى تحفل بغناء القيان ، ولهن على الشعراء فضلا ، فضل الإلهام الشعرى لجمالهن ، وفضل التجسيم الجمالى لأشعارهم بحسن الأداء ومع ذلك فحظهن من الجائزة عاثر لبخل ذوى الأمر »

ومن أسف أننى لا اتفق مع الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى فى ذلك كله ، ولا أستطيع أن أربط بينه وبين هذه المقامة التى أراها أجمل مقامات ابن نايقا ، وهى صورة أخرى جديدة وبديعة من المقامة المضيرية للبديع ، أراد ابن نايقا أن يصور فيها مبلغ شح الإشكرى ولؤم نفسه .

وكيف والمجلس مجلس شراب لا مجلس كتاب ، وأصحابه إنما هم جماعة من الرؤساء وليس فيه من الكتاب إلا الراوية الذى أجرى ابن نايقا مقامته على لسانه ، ولا أحسب ابن نايقا قد اختاره كاتبا تحقيقا للسجعة فحسب ، وإنما ليسوق على لسانه ما شاء من أوصاف هذا المجلس الذى :

== من الآراء الكلامية والفلسفية والمنطقية نتيين ذلك من (بطل) مقاماته الرئيسى الذى نخله اسم « الإشكرى » وأعطاه دور أحد الفلاسفة الدهريين — فى إحدى هذه المقامات — وقدم على لسانه أنماطا من الشكوك وأقوالا مما يتذرع به الملاحدة ، وكان دور المتكلم فيها إجابته بالحجة والروية ، وتسفيه تلك الآراء الفلسفية فى المعاد والخلق والكون .

(٣٣) مقدمة الجمان : ٢٩

« مثلت به قينة كأنها دمية المحراب ، مغموسة في ماء الشباب ، مليحة
التصرف والافتنان ، موسومة بالحسن والإحسان ، كأنما طربت الشمس على
غنائها ، فخلعت عليها حلة بهائها ، أو بكى لديها عاشقها ، فحكى رقّة دموعه
منطقها ، تستنزل العصم بلاحها وخذعها ، وتسحر العقول بمجونها ولعها » (٣٤)
لقد هجم اليشكري على هذا المجلس متوسلا بقول العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

وسرعان ما انبسط اليشكري فعب من الخمر إلى التجر ، وظهر الكلف
بالقينة ، والإعجاب بحسن غنائها ، فواصل الاقتراح عليها حتى ملك على القوم
مجلسهم ، وساور كرى النوم بعضهم ، وأراد فتى منهم أن يبعث النشاط في
المجلس ، فهمس للجارية أن تعبث باليشكري ، « وكان في يده خاتم كالقلامه ،
بفص كالبرامة » فبعثها على أن تراوده عنه ، فتفرغت القينة اليشكري ، وتوجهت
إليه بكليتها ، فجعل يغارضا وتغازله ويمارحها وتمازحه ، و يقترح عليها ما يشاء من
الأصوات ، فتأتى بما يسحر الألباب ، وهى في أثناء ذلك تفرقه في بحر من الخمر ،
فلما تمكن منه الطرب ، وأعلن أنه ارأسنته الحال لسعى في رضاها ، فإنها عنده
أحق بخراج العراق ومنبر الملك ، تصورت أنها تمكنت منه ، فطلبت إليه أن يهبها
خاتمه لتذكره به ، فتغيرت حاله ، وجعل يغالطها عن ذكر الخاتم ، وهى تعاوده
وتلح في الطلب الى أن هوت بيدها الى يده لتزعه ، فخر مغشيا عليه ، فارتاعت
وقد ظنت أن نفسه قد فاضت « فبعد لأى ما أفاق ، وهى متعرضة له ، فقال لها :
إليك عنى ، لست من دد ولا دد منى ، ونهض فخرج ، والصباح قد بلج ، وقد
غلب لؤمه وفلج »

هذا هو مضمون المقامة التاسعة مع الاختصار المختل ، نرى منه كيف برع ابن
ناقيا في تصوير هذه الشخصية العجيبة التى تريد من الدنيا كل شىء ، ولا تسمح
نفسها ببذل شىء ، ولقد أجاد حين حشد لليشكري كل ما يمكن أن يدفعه إلى
السماح بخاتمه الضئيل ، ولكن هيهات .

و حسب بعد ند - حد و جنسى حين مع -
مصطفى الجوينى على هذه المقامه ، وإن كان تعليقه على مقامة أخرى أشد
عموضاً (٣٥) :

« المتامة الخامسة : تعرض لما شأ في مجتمع العصر من سدود الجنس ، وأنه
مرفاة إلى المال أو المنصب خاصة واللقاء في قصر ابن الوليد تم انهى في إحدى
(كذا) الغيطان . لعل هذه المقامة تشير إلى ما كان بين المتنبي وكافور الاخشيدى
في مصر ، فيصور موقف النذل الذي وقفه المتنبي بموقف الخزي الذي يتعرض له
مرتكب الشذوذ الجنسي » .

و يبدو أن الذي دعا الدكتور الجوينى إلى هذا التأويل البعيد أن ابن ناquia
جعل أحد الشخصين عبداً أسود ، وأن الآخر - وهو اليشكري - دعاه : أبا
المسل .

ومهما يكن من أمر فلا شك أن ابن ناquia سعيد بهذا الاختلاف الشاسع حول
مقاماته ، فعلى حين يرى الدكتور محمد رشدي حسن كاتبها كاتباً شيطانياً لا
يراعى الذوق الإنساني والآدمي (٣٦) ، و يكاد الدكتور يوسف نور عوض يعربها
من كل مغزى ، يرى لها الدكتور مصطفى الصاوي الجوينى رموزاً بعيدة قد
لا تتسع لها .

و يبدو أن مقامات مشرقية أخرى قد وضعت في ذلك العهد ، ولكنها ضاعت
أو لم تحظ بحظ من الشهرة والذيع ، وخير مثال على ذلك « شَهْفِيرُوز » (٣٧) بن
شعيب (٣٨) ابن عبد السيّد ، وهو شاعر كاتب مغمور من أهل بغداد لانكاد
نقف على اسمه في مصادر أدبنا العربي ، بالرغم من أنه كان فيما يبدو أدبياً مجيداً

(٣٥) مقدمة الجمان : ٢٨

(٣٦) تطوّر فن المقامة : ٩٨

(٣٧) اختلف في اسمه وقد أثبتناه من الخريدة/العراق : ٢٩٦/٢/٣ (بتحقيق محمد بهجة
الأثرى ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥-١٣٨٤ هـ) وهو فارسي معناه الملك المنصور ،
وفي معجم الأدباء : ٢٧٢/١١ ، وفوات الوفيات لابن شاکر الكتبي : ٣٨٦/١ بتحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٥١ م ، أنه « شَهْفِيرُوز » .

(٣٨) في الخريدة : سعد ، والمثبت من معجم الأدباء ، وفوات الوفيات .

وشاعرا مفلقا ، لقد وضع « شهفيروز » مقاماته الأدبية التي ضاعت كما ضاع ذكره في الحلقة الأخيرة من القرن الخامس ، نطالع ذلك في قول ياقوت الذي ربما لم يلتفت إليه أحد من قبل (٣٩) :

« أبو الهيجاء الأصهباني ، كان أدبيا فاضلا شاعرا مجيدا في النظم والنثر له مقامات أنشأها سنة تسعين وأربعمائة (٤٠) ، وأخذ عن أبي جعفر محمد بن سلمة وغيره ، مات سنة ثلاثين وخمسمائة » .

(٣٩) معجم الأدباء : ٢٧٢/١١ ، ومثله في فوات الوفيات : ٣٨٧/١ ، ولم يذكره بلاشير أو غيره في أصحاب المقامات ، ولم يذكر العماد في الخريدة شيئا عن مقاماته ، في ترجمته التي تبدو مبتورة ناقصة .

(٤٠) عده الدجى فيمن عملوا المقامات بعد الحريري ، واسمه عنده أبو الهيجاء شهنيروز ، راجع الفلاكة والمفلوكون : ١٥٣

بـ في المغرب والأندلس :

فإذا انتقلنا إلى المغرب العربي وجدنا أهل الأندلس على عهدهم من الاحتفاء بالآثار المشرقية ، وقد رأينا من قبل قدر إعجاب الحصري بمقامات البديع ، وقد تلاه في ذلك الكلاعي الذي ختم كلامه عن البديع ومقاماته بقوله (٤١) :

« ومحاسن أبي الفضل لا تنتهى أويتهى عنها وقد عارضه في هذه المقامات جماعة من الكتاب ، بما نزهت عن ذكره هذا الكتاب »

بل لقد وجدت رسائل البديع طريقها إلى الأندلس ، و يسوق لنا صاحب الذخيرة رقعة من إنشاء أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم يعارض بها رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وده بعد أن عذر ، وبقل وجهه وأزهر ، حين عرضت عليه (٤٢) .

ولعل أول من تأثر بمقامات البديع من أهل الأندلس ابن شهيد (٤٣) في رسالته التوابع والزوابع ، فقد نقلنا إلى أودية الجن ، يلقي فيها توابع الشعراء والكتاب من أهل عصره وسابقه حيث تدور بينه وبينهم محاورات ومساجلات استطاع من خلالها أن يبرر كثيرا من آرائه الأدبية وأن يسخر من أدباء عصره سخرية لا ذعة .

(٤١) إحكام صنع الكلام : ٢٠٨

(٤٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام : ١٤٠/١ (بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) ، وهو عبد الوهاب ابن عم ابن حزم صاحب طوق الحمامة ، توفي سنة ٤٥٦ هـ

(٤٣) أبو عامر أحمد بن أبي مروان ، توفي سنة ٤٢٦ هـ ، راجع : الذخيرة : ١٩١/١ ، والمغرب في حلى المغرب : لابن سعيد : ٧٩/١ (بتحقيق الدكتور شوقي ضيف القاهرة ، دار المعارف ، طبعة ثانية منقحة ١٩٦٤ م) .

ولقد سقنا من قبل رأى شوقي ضيف^(٤٤) في أن التشابه الكبير بين هذه الرسالة ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، قد لا يعود إلى تأثير إحداهما بالأخرى — وهذا ما يختلف بشأنه الباحثون — وإنما يعود إلى أثر آخر استمدا منه جميعا هو المقامات البديعية و بوجه خاص المقامة الإبليسية التى استغل فيها البديع الفكرة العربية القديمة عن شياطين الشعراء فعقد لقاء خياليا بين عيسى بن هشام وشيطان جرير ، أقام عليه مقامته .

ومع تأثر ابن شهيد بالمقامة الإبليسية فى اقامة الاطار العام لرسالته فإنه تأثر بغيرها من مقامات البديع ، فى صنع مادة رسالته ، فقد اننى زبدة الحقب تابعة بديع الزمان ، وعارضه فيما أملاه على لسان البديع فى المقامة المضير يد بقطعة بليغة فى صفة الماء^(٤٥) ، ما إن سمعها زبدة الحقب حتى استشاط غضبا ، فضرب الأرض بقدمه حتى غار فيها .

و يرى مصطفى الشكعة أن ابن شهيد فى هذا قد أجهف عن عمد بأستاذه البديع لذا يعد عليه مواطن تأثره به فيقول^(٤٦) :

« وهكذا يتبين لنا أن ابن شهيد أخذ المقامة الإبليسية لبديع الزمان ونماها وتوسع فى خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص فى كتابة قصته الطويلة .

وابن شهيد متأثر بعد ذلك بعدد آخر من مقامات بديع الزمان مثل المقامة البشرية ، والمقامة الحمدانية وفيها وصف جميل للفرس ، يقابله وصف الأوزة ، فى التوابع والزوابع ، والمقامة الجاحظية وفيها وصف لبلاغة الجاحظ وابن المقفع يقابله وصف لبلاغة الجاحظ وعبد الحميد عند ابن شهيد ، و يظهر تأثر ابن شهيد ببديع الزمان فى الموضوع والأسلوب والفكرة فى وصفه الحلوى . »

(٤٤) المقامة : ٣١ ، وعصر الدول والإمارات : ٦٧٣

(٤٥) التوابع والزوابع : ١٢٨ بتصحيح بطرس البستاني ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

(٤٦) الأدب الأندلسى ، موضوعاته وفنونه : ٦٨٠ ، (بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م) والأدب فى موكب الحضارة الإسلامية (كتاب النثر) ٦٤٩ (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م) .

ومن أسف أن هذه الرسالة الممتعة قد ضاعت فلم يبق منها إلا ما احتفظ لنا به ابن بسام في ذخيرته (٤٧) ، ولكنها على كل حال كانت أحسن حظا من رسائل أخرى كثيرة ألفها ابن شهيد على هذا النحو الذي أدمنه فضاقت بالزعم من أنها كانت مشهورة محتفى بها في حياته و بعد موته كما نعلم من قول ابن حبان (٤٨) .

« وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعرّص والأهزال ، قصار وطوال برز فيها شأوه ، وبقاها في الناس خالدة بعده »

و يسوق ابن بسام في ذخيرته نصا قصيرا في أخبار الأديب عبد الرحمن بن فتوح يتخذ الشكل المقامي (٤٩) ، وتدور أحداث هذه المقامة في رمضان سنة أربع مائة وثلاثين وكان ابن فتوح يطوف بالمسجد الجامع بالمرية يردد بيتا من الشعر متأثرا لفراق حبيب حيث يلتقى بفتى من شدة الأدب ، ويخبره الفتى أنه أخذ بيته من العباس بن الأحنف ويمضي الفتى عنه وقد تعلق به ابن فتوح ، ولكنه يعاوده عند الفجر ، ولما لم يجد ابن فتوح في بيته خيرا يتنادمان عليها ، أمضيا وقتها في مدارس أحوال الأدب والأدباء ويتخذ ابن فتوح من هذا الإطار منطلقا لنقد بعض أدباء مصره وعصره (٥٠) :

« فقال لي كيف ذكرت لرجال مصرك ؟ ووقوفك على شعراء عصرك ؟ قلت : خير ذكر ، فقال : من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا ؟ قلت : الرقيق حاشية الظرف ، الأنيق ديباجة اللطف ، أبو حفص بن برد . قال : فمن أقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج والسراج الوهاج أبو عامر بن شهيد . قال : من أذكهم للأشعار ، وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف البارع اللطيف أبو الوليد بن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع وأشغفهم بالتقسيم والتبصير ؟ قلت : الراجح في روضة الحسب ، المستطيل بمرجة الأدب ، أبو بكر يحيى ابن إبراهيم الطنبلي ... »

(٤٧) الذخيرة : ١/٢٤٥ - ٣٠١

(٤٨) الذخيرة : ١/١٩٢ وانظر رسالة له تقترب من روح المقامة : الذخيرة ١/٢١٣ - ٢٢٥ .

(٤٩) الذخيرة : ١/٧٨٦

(٥٠) الذخيرة : ١/٧٨٧

وإن كان ابن فتوح قد حدد مكان وزمان هذا المجلس ولم يتخذ لحديثه هذا رאוياً ، ولم يستتر هو وراء شخصية وهمية بل نصب نفسه بطلا للمقامة مما يقترب بها كثيراً من الواقع (٥١) ، فإن حديثه هذا قد اتخذ شكل مقامة نقدية يلقي فيها ابن فتوح أحكاماً عامة على أدباء عصره ، كما رأينا .

ولابن فتوح بعد ذلك قطعة أخرى أوردها ابن بسام في الذخيرة وقدم لها كسابقتها بقوله (٥٢) : « وحدث ابن فتوح هذا عن نفسه قال » ، وتدور كسابقتها في المسجد حيث كان ابن فتوح بصحبة غلام معذر كان قديم الامتزاج به ، فلقبه بعض إخوانه وعاتبه على المضي في حبه ، فما كان منه إلا أن دافع عن موقفه بقطعة بليغة من النثر وأبيات من الشعر ، ويبدو الطابع المقامي في هذه القطعة القصيرة التي أطلعنا عليها ابن بسام في ظهور الشخصيات ، ووجود الحوار ، والمراوحة بين الشعر والنثر .

* *

فإذا تقدمنا قليلاً في القرن الخامس صادفنا ابن شرف القيرواني (٥٣) معاصر ابن رشيق القيرواني ، صاحب العمدة وخصمه الكبير .

ومن أشهر أعمال ابن شرف مقامة نقدية طويلة احتفظ ابن بسام بنصها (٥٤) ، وطبعت مراراً (٥٥) .

(٥١) راجع تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ٣٦١ ، والدكتور إحسان عباس في تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ٣١٢ - ٣١٣ (بيروت دار الثقافة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ م) .

(٥٢) الذخيرة : ٧٧٨/١

(٥٣) هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني وقيل ابن شرف اسم أم أحمد جد ابن شرف ، وقيل اسم أبيه فيجوز صرفه ومنعه ، نشأ ابن شرف في القيروان ثم رحل إلى صقلية ومنها إلى الأندلس حيث أقام في كنف بني عباد في أشبيلية ، وتوفي سنة ٤٦٠ هـ .

(٥٤) الذخيرة : ١٩٦/٤ - ٢١١ ويلاحظ الدكتور إحسان عباس أن ابن بسام يوجز في النقل ، راجع ص ١٩٧ ح (١) .

(٥٥) نشرت بعنوان أعلام الكلام عن نسخة أحمد طلعت بتصحيح عبد العزيز أمين الخانجي (القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م) ، ونشرها محمد كرد علي بعنوان مسائل الانتقاد في رسائل البلغاء (القاهرة ، لجنة التأليف الطبعة الثالثة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م) ، ثم نشرها شارل بلا مع ترجمة إلى الفرنسية (الجزء ' ١٩٥٣ م) .

و يبدأ ابن سرف مقامته النقدية بأحكام عامه على الشعراء منذ الجاهلية حتى عصره لا تختلف عن تلك التي رأيناها عند ابن فروع كثيرا ومع هذا فهي لا تخلو من رؤية خاصة لعل أبلغ دليل عليها قوله في أبي نواس :

« أما أبو نواس ، فأول الناس في خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى فنكّب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجذّ هزلا ، والصعب سهلا ، وخالف فتشعر وعرف ، وأغرب فذكر واستطرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق ، فشعر أبي نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس » (٥٦) .

وإذا كنا نراه يتهم أبا نواس باتباع سياسة « خالف تعرف » فلا شك أننا نلمح شيئا من ذلك في نقده هو لأبي نواس . وإذا تقدمنا في مقامة ابن سرف وجدناه يولى المعنى اهتماما خاصا :

« إن من الشعر ما يملا لفظه المسامع و يرد على السامع من قعاقع فلا يرعك شماخة مبناه وانظر إلى ما في سكناه من معناه ، فإن كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وإن كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة ، وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها » .

ومادامت المعانى هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح على حد تعبير ابن سرف فلينبثق من هذا المنطلق لنقد أشعار الشعراء ، وهو هنا لا يحمله إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسانه بل يمضى في نقد امرئ القيس وزهير وسحيم نقدا لا ذعا في أكثر الأحيان ، فمن ذلك عيبه بيت امرئ القيس :

و يَوْمَ دَخَلْتُ الْخَيْدَرَ خَيْدَرٌ عُنَيْزَةٌ فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
حيث يقول :

« فما كان أغناه عن الإقرار بهذه ، وأشد غفلته عما أدركه من الوصمة به ، وذلك أن فيه أعداد كثيرة النقض والبخس ، منها دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له « لك الويلات » وهي قولة لا تقال إلا للخصيس ، ولا يقابل بها رئيس ، فإن احتج محتج بأنها كانت رأس منه قيل له : لم يكن ذلك ،

(٥٦) الذخيرة : ٢٠٥/٤ ، ورسائل البلغاء : ٣١٤ ، وأعلام الكلام : ص ٢٢

لأن الرثيسة لا تتركب بعيرا يدرج أويموت إذا ازداد عليه ركوب راكب ، بل هو بعير فقير حقير ، فإن احتج بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقة قيل له وكيف يكون عاشقا لها من يقول لها :

فثَلِيكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمَرَضِعاً فَأَهْلَيْتُهَا عَنْ ذِي ثَمَائِمٍ مُخَوِّلِ

وإنما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته واطراح سواها كالقيسين في ليلى ولبنى ... ، ثم أهجن هجنة عليه ، وأسخن سخنة لإعنيه ، إقراره بإتيان الحبلى والمرضع ، فأما الحبلى فقد جبل الله النفوس على الزهد في إتيانها .. ولا يميل إلى هذا من له نفس سوقى ، دع نفس ملوكى ثم لم يكفه أن يذكر الحبلى حتى افتقر بالمرضع ، وفيها من التلوث بأوضار رضيعها ومن اهتزالها واشتغالها عن إحكام اغتسالها ، وقد أخبر أن ذا التمام المحول متعلق بها ... وأخبر أنها ظئر ولدها لا ظئر له ولا مرضع سواها ، فدل بذلك على أنها حقيرة ، وقيرة ، ومثل هذه لا يصبو إليها من له همة ، وهذه الصفات كلها تستقذرها نفس الصعلوك والمملوك . »

وعلى هذا النحو يمضى ابن شرف في نقد سحيم عبد بنى الحسحاس في قوله :

تَوْسَلُنِي كَفًّا وَتَحْنُو بِمَعْصِمٍ عَلَيَّ وَتَرْمِي رَجُلَهَا مِنْ وَرَائِيَا
فإنكر صدق هذا البيت ، ويستنكر على هذا العبد الأسود أن يكون معشوقا ، على هذا النحو .

ومهما يكن من أمر هذا النقد ، فإن ابن شرف حاول فيه أن يربط بين النص وقائله ، وحاول أن يستبطن الدوافع النفسية التي تكمن من ورائه ، وهو يختلف عما ورد عند ابن فتوح وغيره من أصحاب المقامات النقدية ، في أنه أسبغ ثوب المقامة ليتسع للوقوف عند أبيات بعينها ناقداً ومحللاً ومناقشا ، غير مكتفٍ — كما هو معهود في مثل هذا المقام بالعبارات القصيرة المسجوعة المجنسة التي تلقى أحكاما عامة ، بل نراه فيما مضى يتخفف من قيود السجع ليتيح له ذلك سعة في القول ، ولا ننكر أيضا أن ابن شرف صدر في نقده هذا عن ذوق خاص ومنهج متفرد أضفى على نقده عنصر الجدة والصدق .

ولعل المضمون النقدي لهذه المقامة هو الذى ساعد على بقائها لاحتفاء الأدباء والنقاد بما حوته من فوائد تتعلق بشعراء العربية منذ الجاهلية إلى عصر ابن شرف ،

بينما ضاعت أخواتها ، فهو يحدثنا في مقدمته التي نشرت مع هذه المقامة عن مقامات آخر له ، يبدو أنه لم يسلك فيها هذا المسلك النقدي ، وإنما تعددت مضامينها ومراميها يقول (٥٧) :

« هذه أحاديث صغتها مختلفة الأنواع مؤتلفة في الأسماع عربيات المواسم غريبات التراجم ، واختلقت فيها أخبارا فصيحيات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، وأسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها » .

ويعترف ابن شرف بأنه وضع هذه الأحاديث بعد أن عاين ما صنع القدماء في وضع كتاب كليله ودمنة ، فأضافوا حكمه إلى الطير الحوائم ، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم ، وصنع سهل بن هارون في تأليف كتاب النمر والثعلب الذي نحا فيه هذا النحو فجاء بديع المراسلات مليح المكاتبات — كما اطلع على بعض مازور البديع — على حد قوله — من مقامات ، ثم يعقب على ذلك (٥٨) :

« فأقت من هذا النحو عشرين حديثا أرجو أن يتبين فضلها ، ولا تقصر عما قبلها » .

ومع أنه يشير إلى تأثيره بالقصص الحيوانى ممثلا في كليله ودمنة وكتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون وأنه لم يطلع على قدر كاف من مقامات البديع ، إذ يعجب من رعم رواتها أنها عشرون ، فإنه فيما يبدو قد ثقف طريقة البديع في بناء مقاماته وسار على هديها في أحاديثه أو مقاماته تلك ، وهذا واضح من قول ابن بسام (٥٩) :

« ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابها ، وصبت فيها على قلبه »

ولابن شرف مقامات أخر غير هذه الأحاديث العشرين التي يبدو أنه كتبها أو أخرجها إلى الناس دفعة واحدة ، ولم يتأد إلينا منها سوى هذه المقامة النقدية ، فقد

(٥٧) أعلام الكلام : ١٣

(٥٨) أعلام الكلام : ١٤

(٥٩) الذخيرة : ١٩٦/٤ ، ولاحظ وهم محمد رضا الشيبى في قوله : « لابن شرف رسالة أو مقامة أدبية نحا فيها نحو الحريرى في بعض مقاماته ، وتناول بالعد جمهرة من الشعراء ... » ، فابن شرف مات سنة ٤٦٠ هـ أما الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فقد وضع مقاماته بين سنتى ٤٩٥ و ٥٠٤ هـ ، راجع : أدب المغاربة والأندلسيين : ٨٥ (القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٩٦١ م) .

أقام أحاديثه على بطل واحد ، وعبر عن ذلك بقوله في المقدمة :

« وعزوتها إلى أبي الريان الصلت بن السكن بن سلامان ، وكان شيخاهما في اللسان ، وبدراهما في البيان ، قد بقى أحقابا ، ولقى أعقابا ، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فانتحنا من علمه بجرا جاريًا ، وقد حنا من فهمه زندا واريًا ، وأدرنا من بره طرفًا ، واجتنيينا من ثمره طرفًا ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتل » . فإننا نرى ابن بسام يورد لابن شرف مقامة أخرى كاملة في ذخيرته تبدأ بقوله (٦٠) :

« حدثني الجرجاني ، قال : كان فتى بجرجان من أنباء الأقيال ، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال ، وكان مألفا للأدباء ، ومأوى للغرباء ، ورزقا للفقراء ، فلا يخلو منزله من أهل الإعدام ، فإنني لعنده في بعض الليالي ، إذ استوذن عليه لضرير فقير ، فأمر بإكرامه وإطعامه ، فلما فرغ من شأنه ، استدعاه إلى إيوانه ، فدخل علينا رجل شيخ وافر السبال ، قد عمه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد صلعت هامته ، وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه وثقل جسمه على عصاه ، فسلم بصوت ضئيل ، ودعا بلسان ثقيل ، وأقبل يذكر شبابه ، ويتذكر أحبابه ، وينوح على سالف زمانه ، ويندب ثقات إخوانه فرق له الفتى فأدناه ، حتى أجلسه على يمينه ، وصبره وسلاه ، ثم سمرنا إلى وقت النوم ، فتفرق سائر القوم ، ونام في مكانه ، مراعاة لحق ضيفانه » .

ويظهر مما تقدم أن للمقامة راوية جديدة غير راوية مقامته السابقة ، هو « الجرجاني » وأن لها بطلا جديدا أيضا هو هذا الشيخ الضرير الفقير الذي اعتنى ابن شرف برسم صورة واضحة له تبرز فيها صفاته وملاحظه ربما أوما بها إلى بعض معاصريه .

وتكون المفاجأة في القسم الثاني من المقامة حين انتبه الراوية من نومه على نبرة لم يعهد مثلها من مضيفه ، وكان قريبا منه فأرهدف السمع لينتهي إليه الحوار التالي :

« فسمعت الاعمى يقول : يا سيدي أنا ضرورة ، وثم ضرورة ، وقد طالت الغربة ، واضطرتني العزبة »

فقال الفتى له : فما وجدت لضرورتك سوى ، ولا لغزبتك حاشاى ؟

قال له : فإن أبيت إلا أن تمنع ، فدلنى على ما أصنع

قال له الفتى : أرى لك أن تتسرى

قال : ومن للصعلوك بالملوك ؟

قال : فتزوج

قال : والمحوج كيف يتزوج (٦١) ؟ »

ونلاحظ هنا مدى توفيق ابن شرف فى استخدام عنصر المفاجأة ، ثم فى حوار الذى جاء قصير العبارات سريع التناوب ، فى لغة سهلة ، وان جنح فيه بعد ذلك إلى شىء من الإفحاش باستخدام الألفاظ الصريحة والإشارات المأجنة ، وإن كانت فى الحقيقة لم تخرج عما يقتضيه موضوع المقامة .

و يتدخل الراوية ليتلاعب بالشيخ الفاسق ، وجعل يزين للفتى مادعاه إليه بمثل قوله : « ما سألك الشيخ فى عسير ، ولا حملك على خطر ، فهلا قضيته فأرضيته ؟ » ، وظن صاحبنا أنه ممن يميلون ميله ، فاستطال فى مراودة الفتى عن نفسه ، ولما فطن إلى جلية الأمر ، استبدل بملاطفته وتعلله : التهديد والوعيد إلى أن كان من آخر أمره :

« ثم اهتز كأنه نسر مقصوص ، أو حمار مرهوص ، فقمنا وتركنا جانبه ، وجعل يضرب بعصاه ما قارب به ، فتركناه وشانه ، وأدمننا عيانه ، نصعد فيه ونصوب ، ونعجب ونعجب ، فلم تزل شقشقتة تهدر ، وعصاه تتكسر ، حتى كلفت يداه ، وانحلت قواه . ولاح وجه الصباح ، وجئنا إليه بالمصباح فإذا هو كالجدار المهدوم ، والخدر المهشوم قد فارق النفس التمرودية ، ومات الميتة الجاهلية ، فدفنه الفتى فى أطماره ، وسألنا كتمان أخباره ، وأفن لعمرى أتى أفن أن يطمع لخبر هذا فى دفن ، بل هو منشور ، إلى يوم النشور » .

وهذه المقامة فى جملتها تشهد لابن شرف بالبراعة ، فقد جاءت سجعاته رشيقة مقبولة بعيدة عن التكلف والتعقيد وأحسن تصوير شخوصه وأدار الحوار بينها بخفة ومهارة ، كما استطاع أن يحكم تأزيم الموقف لإبراز الصراع ، وأدارها على السخرية ممن تغلبهم شهواتهم خاصة من أصحاب الميل الشاذ ، الذى شاع فى عصره بين العامة والخاصة ، وجاهر به الشعراء والكتاب .

(٦١) كذا ولعلها : يتزوج

ومع أن المصادر العربية التي بين أيدينا لا تعطينا الكثير عن حياة أبي عبد الله محمد بن مسلم ، وأن اسمه ليس من الأسماء التي يكثر دورانها في كتب التراجم ، فإننا نستطيع أن نردّ مقامته التي سماها « طى المراحل » إلى نتاج القرن الخامس الهجرى ، فذلك ، وفادته على المعتضد (٦٢) يعنى أنه أنشأها قبل سنة ٤٦١ هـ ، ونستطيع ردها إلى سنة ٤٥٢ هـ أو بعدها بقليل استدلالاً بقوله فيها (٦٣) :

« ثم لما حان إيابى ، وزُمت ركابى ، إذا بكتاب المعتصم بالله (٦٤) إلى المظفر يذكروفاة خاله المنصور بن أبي عامر (٦٥) ، فلزمنى الكتاب إليه ... »

وقد قدّم ابن بسام وابن سعيد لعمل ابن مسلم على أنه رسائل مخاطب بها ابن أرقم صاحب ميورقة ، لأنه اختار صب عمله في قالب الرسالة الإخوانية كما يظهر من قوله (٦٦) :

« إن أغببت على بعد الديار مكاتبتك ، وأقللت مع شخط المزار مخاطبتك فانى أخاطبك بلسان وداد ، وأناجيك فؤادا لفؤاد ، وإنما يتخاطب أهل بعد المكان ، ويتكاتب ذوو النأى عن العيان ، وأنت في الضمير جائل ، فما تفيد الوسائل ؟ »

وهى كما يبدو من عنوانها (طى المراحل) وكما تؤكد ابن بسام عنها تدور على الحل والارتحال ، والانتقال من مكان إلى مكان ، ومن بلد إلى آخر ، ووصف أحوال هذه البلدان ، ورصد المشاهدات التي يعاينها في إقامة أو تجوال شأنها في ذلك شأن أدب الرحلة ، أما الجانب المقامى فيها فيظهر في محاولة القص وتأزيم المواقف وتفريجها ، واستخدام أسلوب السجعات القصار كما يبدو من قوله (٦٧) :

(٦٢) راجع الذخيرة : ٤٤٠/٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، وهو عباد بن محمد بن إسماعيل ابن عباد المعتضد بالله ، وتوفى سنة ٤٦١ هـ ، راجع الحلة السيرة لابن الأبار : ٤١/٢ بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م .

(٦٣) الذخيرة : ٤٣٩/٣

(٦٤) هو المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح التجيبى ، توفى سنة ٤٨٤ هـ ، (الحلة السيرة : ٨٤/٢) .

(٦٥) هو المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، توفى سنة ٤٥٢ هـ (الذخيرة : ٢٥٠/٣) .

(٦٦) الذخيرة : ٤٢٧/٣ ، والمغرب : ٤٠٥/٢

(٦٧) الذخيرة : ٤٣٩/٣

« ومرت لنا الأيام لانستطيع براحا ، ولا نلذ غدوا ولا رواحا ، فلما انقضت ليال خمس ، التفتتنا الشمس التفات البكر ، من خلال الستر ، وصمت الماء من خريره ، والهواء من صريره ، فقلنا قد يكون الرضى صماتا ، والإذن التفاتا ، وأخذنا في التفويض ، وأسرعنا بالنهوض ومازلنا في مسلكنا نموت ونحيا ، ونتقلب بين الآخرة والأولى حتى اصطلينا بنار الحباحب سيف الدولة أبى الفتوح ، فقابل بوجه طلق وخلق سمح ، فلما صرنا في ذراه وكنتنا نعماه ، أنشدنا : فقل للسماء ابردى وابرقى فإننا إلى المنزل »

كما يظهر هذا التأثير المقامى فيما وشحها به من فنون أدبية كرسالته إلى ذى الوزارتين الكاتب أبى محمد بن عبد البر ، ورسالته في تعزية المعتصم بالله وتهنئته ، ورسالته إلى الوزير أبى الوليد بن زيدون (٦٨) ، و يظهر أيضا في إشباعه الوصف على نحو مانرى في وصفه دار المعتصم ومائدة طعامه ، والمسجد الجامع ، ومصحف عثمان ، ونقتطف من ذلك قوله في صفة المسجد (٦٩) :

حتى انتهينا إلى المقصورة فألفينا سقفا من فضة ، ومعارض إلى الجنة قد قرط سمكها بالذهب الأحمر ، والفلذ الأخضر ، وبلط سطحها بماء الجواهر ، وكافور المرمر ، فكان قبابها قد عقيدت بالجفون الذعج والحواجب البلج ، وكان درجات منبرها تكاسير الشعور مالت على متون الحور ، أو مناطق الأعكان ، ضمت على الخصور اللدان ألق من عاج كالمباسم ، نقش نقش الدراهم ، وأبنوس كالفدائر. رز و طبع طبع الدنانير ، وصندل كأطراف البنان كتبت يهدب الأجفان .

وأخيرا يظهر الجانب المقامى في تلك المخالصة المدحية المتعددة ، التى كانت هدفا وظف له الكاتب عمله ، وأفاض فيه ، خاصة حين انتهى إلى مدح المعتضد .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع ابن مسلم أن يمزج في عمله بين خصائص الرسالة الإخوانية ، وأدب الرحلة ، والطابع المقامى في توافق ربما كان السابق إليه وكان السبب في إعجاب أهل الأندلس بهذا النمط من الكتابة واحتذائه كما نرى

(٦٨) راجع الذخيرة : ٤٣٧/٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٦ على الترتيب

(٦٩) الذخيرة : ٤٤٢/٣

من ملاحظه ابن بسام العابرة والدقيقة في الوقت ذاته حين قدم لمتطفاه بقوله (٧٠) :

« ولم أظفر عند وضعي هذا الديوان بشيء مما له من الإحسان إلا بفصول من رسائل سماها طي المراحل ، سبق في ميدانها عفوا ، وتصرف بين حسنها وإحسانها تصرفا حلوا »

* *

ثم نلتقى بالوزير الكاتب ابي حفص عمر المعروف بابن الشهيد التجيبي الذي وصفه ابن بسام بقوله (٧١) :

« وأبو حفص هذا في وقتنا كان فارسَ النظم والنثر ، وأعجوبة القرآن والعصر ، ونهاية الخبر والخبر ، رَقَمَ برُودَ الكلام ، ونظم عقودَ النثر والنظام »

وقد أورد ابن بسام قطعتين من نثره تتضمن الأولى رقعة خاطب بها بعض إخوانه ، ولا تخلو من روح المقامة (٧٢) ، أما الأخرى فهي مقامة صرح ابن بسام بأنه حذف بعض فصولها لطولها (٧٣) ، وقدم ابن الشهيد مقامته بالحديث عن صناعة الكتابة ، وما أصابها في عهده :

« إن صناعة الكتابة محنة من المحن ، ومهنة من المهن ، والسعيد من خدمت دولة إقباله ، والشقي من كانت رأس ماله ، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه لم يُدخلها في مناقبه ، لاسيما وقد تناولها يد (٧٤) كثير من السُّوق ، وباعوها بيع الخلق ، فسلبوها تاج بهائها وِرداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يُعيرها لحظه ، ولا يفرغ في قلبها لفظه ، إذا لحظ أن يعثر الكرام إذا ولّى الأعلاج ، وأن تستنجد الآساد إذا استأسدت الثعاج ... »

ويبدو أن أول المقامة يقع في الاقتباس التالي حيث الدنيا في زمن الربيع « وأخذ آذار على ما اعتاد ، فحلتى الوهاد والتجاد » ، وفي هذا الوقت « حنت

(٧٠) الذخيرة : ٤٢٧/٣

(٧١) الذخيرة : ٦٧٠/١

(٧٢) الذخيرة : ٦٧١/١ - ٦٧٤

(٧٣) الذخيرة : ٦٧٤/١ - ٦٨٥

(٧٤) كذا ، وأرى إسقاط هذه الكلمة ، ولعل التحريف : بعد

نفس الفنيه بسببها ، إلى كره عادتها ، من الإحسان إلى الاتعاع ، والنسب
لنفوس الآلاف والأنبياء » ، ومن هنا يبرر ابن الشهيد لمقامته التي نتوالت في مشاهداته
رحله طويلا مع هذا الفقيه الذي قد يكون ابن الحبيب الذي وجد
إليه السلام في صدر مقامه .

ثم يعرض لنا ابن بسام من هذه المفامة الطويلة لوحة يمكن أن تكون مفامة
بنفسها وتبدأ هذه اللوحة بميلهم إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وزى .
وابن الشهيد هنا يجيد في رسم شخصية هذا البدوى الذى يتعاقب بالمثل
الأخلاقية من السماحة والكرم والاعتداد بأخلاق البداوة ولكنه فى الحقيقة
لا يأخذ بشيء من ذلك لما تنطوى عليه نفسه من بخل ، ولما أصابه من لمسة مدنية
شوهدت أديم بداوته ، بأصباغ حضرية أفسدت عليه طبيعته الأولى بما فيها من
بساطة وخشونة وكرم ، وجعلته يركن إلى التعلق بأهداب المظاهر فى زيه وفى
رياش بيته ، فخرج عن طبيعته بحيث لم يعد بدويا حقا ، ولن يكون حضريا
أبدا ، وإنما هو خليط متباين متنافر من هذا وذاك .
هذا — عندى — ما عناه ابن الشهيد حين قال :
« وملنا إلى منزل بدوى ، ذى هيئة وزى :

له منزل رَحْبٌ عَرِيضٌ ، مُزَرَّبٌ بِأَعْوَادِ بَلُوطٍ وَطُوجٍ مُفْتَلٍ
تَرَى بَعَرَ الْآرَامِ فِي عَرَصَاتِهِ وَقِيَعَانِهِ كَأَنَّهُ حَبٌّ فُلْفُلٌ »
أين هذه الصورة من تلك ؟ ولكنها جميعا يتنازعان نفس هذا البدوى المسكين
يجمعها ايقاع حياته ، وترتقها قافية أيامه .

وها هو ذا يمثل دور البدوى الذى نسيه ، أو كاد ، حين ينشط إلى استقبال
ضيفانه ، لكن أضغاث بداوته تختلط بتطلعات حياته الجديدة فى أقواله وأفعاله :
« فهش وبش ، وكنس منزله ورش ، وصير عياله إلى ناحية ، وجمع أطفاله فى
زاوية ، وجعل يدور كالحذروف أمام الصفوف ، يتلقى الواحد منا بعد الواحد ،
يأخذ بركابه ، ويكشر عن نابه ، ويتمثل :

أَخَذَى كَذَا بَرَكَابِ الضَّيْفِ أَنْزَلُهُ أَلَذُّ عِنْدِي مِنَ الْإِسْفَتِجِ بِالْعَسَلِ
أَوْ مِنْ رَغَائِفِ كَسَائُونِ مُلْهُوَجَةٍ أَوْ رَائِبِ بَقَرَى جَيْدِ الْعَمَلِ
أَوْ مِنْ خُوَارِ عُجُولٍ فِي مَسَارِحِهَا أَوْ مِنْ رُكُوبِ الْحَمِيرِ الْفُرَى فِي الْكَفَلِ »

وعندما ينتهي ابن الشهيد إلى بيت هذا البدوي ، يلحظ فيه اختلاط الحصاره
بالبداوة كما اختلطا في نفس صاحبه ، فهو :

« بيت مُكَنَّس ، مُتَّوَع مُجَنَّس ، قد جلَّه خُصْراً بليدية ، وغشاه بُسْطاً بدوية ،
ومدَّ فيه شرائط وحبالاً ، كأنه يريد أن يُخرج خيالاً ، وعَلَّق منها غلائل
وملاءات ، وهمايَّين وسراويلات ، وكم شئت من خِرْقٍ مُعَصْفرة ، وعصائب
مُزَعْفرة ... »

تأخذه الدهشة (٧٥) : ولا يملك نفسه من مناقشة صاحب الدار في ذلك ، فيدور بينهما
الحوار التالي :

« فقلت : يا صاحب المنزل ، هنت وكهنت ، لقد أوتيت وأوتيت ، وجعلتُ
أرقق عن صَبُوح ، وأفول :

متى كان الخيام بذي طلوح

من أين للبداوة ، بهذا الأرونق والظلاوة ، وكيف حتى أغرَّت على حانوتِ
العطار ، ومتى نُقل سوق البزَّ إلى هذه الدار ، لقد قرَّت بك الأعْيُن ووسُرَّت
الأنفُس ، هذا زنى العروس فأين العرس ، فضحك البدوي ملء فيه ، وتوسمت
الازدراء فيه ، وأنشد :

يَا أَخِي نَحْنُ عَلَى أَنْفٍ ————— نَتَّاجِ بَدَوِيٌّ
سَادَةٌ نَسَاسٌ لَنَا فِي هَذِهِ السُّنَنِ يَا دَوِيٌّ
عِنْدَنَا إِنْ جَاءَ ضَيْفٌ شَبَّعَ جَسْمٌ وَرَى
وَسَرِيرٌ حَشْوُهُ رِي — شُ السَّقَرَارِ يَجِ وَيَطِي
وَسَرَامَاتٌ كَثِيرَاتٌ وَهَيْئَاتٌ وَزِيٌّ
على أن هذا التباهي ، الذي يكاد يتنكر فيه الرجل لأصله البدوي ، يخرج إلى
غير طائل ، فها هوذا يغري صبيانه بديك هرم هزيل ، يعتزم أن يجعله قري
ضيفانه ، ولكن الديك لا يستسلم لرغبة صاحبه اللثيمة ، بل يحاور صبيانه

(٧٥) لا أرى هنا ما يراه إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسي — عصر الطوائف
والرابطين : ٣٠٩) حين قال : ولعله سخر من البدوي حين أخذ يبدى إعجابه بما يملك من
زهيد المتاع ... « فقد وصفه ابن الشهيد بقوله : « وأودعها من عتاد العروس فاخره ، ومن
طيب البادية أوله وآخره » .

و بداورهم ، و ببرر لنا ابن الشهيد هذه اللوحة أو « اللقطه » في مشهد تمثيلي
يشعرنا بالكثير من التحرج والرثاء لموقف صاحبا ، وإن لم يستشعر هو سبنا من
ذلك :

« ثم فاد من مكانه ، ودعا بصبياناه ، وأغراههم بذلك له هره ، ليدبحه في طاء .
السر . فأجروه لأثمهم الهاو به ، من زاوية إلى زاوية ، حتى سقط الديك سقط
طليح ، جسماً بلا روح ، فأقبلوا إليه ، متهافتين عليه . وهو يضطرب اضطراب
المخنوق ، ويستغيث بالخالق والمخلوق ، وأتفق لفرط حنقه ، ومولم تغلبه ، أن عض
على أيديهم عضّة وانتفض منهم نفضة ، وصعد في بعض الجوائز ، وحميد الله حمد
الفائز ، وتمثل :

إذا غرقت ببخر من الردى فياض
فلايككن بهلاك عليك ظنك قاض
فليس في كل وقت سيف المنية ماض
وهذا الديك العاقل الناطق ، أو الذي أنطقه ابن الشهيد ، يقوم بدور أشبه
بدور بطل المقامة ، ونستطيع أن نلمح في أبياته هذه أنه قد تدبر أمره ، وعرف
الطريق إلى خلاص نفسه من هذا المأزق المتأزم المتلاحم :

« وحن وقت الظهيرة ، فصفق بجناحيه ثنتين ، وصرخ صرختين ، واقتدى به
المؤذنون ، وتجمهر المؤذنون ، حتى إذا قضيت الصلاة استصرخهم فأصرخوه ،
وتواثبت إليه السادة والوجوه ، فقال لهم الديك :

أيها السادة الملوك ، فيكم الشاب متع بالشباب ، والأشيب نور شيبه مع
لكواعب والأتراب ، وقد صحتكم مدة ، وسبحت الله تعالى على رؤسكم مرارا
عدة ، أوقظكم بالأشجار ، وأوذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سيفاداً ،
وربيت لكم من الفراريج أعداداً ، فالآن حين بلى في خدمتكم تاجي ، أنعى إلى
دجاجي ، وتنجي الشفرة على أوداحي ؟ ! وحين أدركني الشيخ يمزق لحمي
ويطبخ ؟ يا للكرام من ذلك هذا المقام !

وجعلت دموعه تسفح من دمه ، والحزن يطبق على فمه ، ثم غشى عليه
فاجتمعت البداوة من كل ناحية إليه ، يضربون وجهه بالماء ، ويخلصون له في
الدعاء ، ثم أفاق من غشيته ، وأنها .

عَلَامٌ يُقْتَلُ شَيْخٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ بَرِيٌّ؟
مُحَقِّقٌ مُتَحَرِّرٌ مُوَحَّدٌ سُئِنِي
هَلْ نَصَّ هَذَا كِتَابٌ أَوْ قَالَ هَذَا نَبِيٌّ؟!
لَا ذَنْبَ لِي غَيْرَ أَنِّي مُوَدِّلٌ بَسْدَوِيَّ»

وهكذا استطاع ديكنا بخطبته البليغة أن يستميل قلوب القوم ، كما استطاع
بغشيته المصطنعة أن يثير إشفاقهم ، ثم أحكم التمكن من قلوبهم بأبياته المتوسلة
المؤثرة « فرقت له أنفس القوم ، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم » .

ولكن الأخير مصمم على رأيه يخادع محدثيه عما هم فيه بعلل متباينة فتارة لأن
هذا الديك ذو فخذ وصدّره ، وتارة لأنه أصابته عليه ضجرة ، وأخرى لأنه وصّى
عن أبيه عن جده أن يقرى ضيفه أحسن ما عنده .

وإذن فلا على الديك في أن يناظر صاحبه في أمر نفسه خالطاً غلظته عليه
بالتلطف إليه :

« فقال الديك : لا أكذب ، الحق طريق مُستبين ، وأتباعه مروءة ودين أما إنه
لعلّى خُلِقَ عَظِيمٌ ، كَرِيمٌ ابْنُ كَرِيمٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَوْمٌ فِي أَمْرِي وَأَفَرَطٌ وَغَلَطٌ مَا شَاءَ أَنْ
يَغْلَطَ ، أَمَا عَلِمَ أَنَّ هَرَمَاتِ الدُّيُوكِ ، لَيْسَتْ مِنْ مَطَاعِمِ الْمُلُوكِ ، وَأَنَّهَا بِالْأَدْوِيَةِ
أَشْبَهَ مِنْهَا بِالْأَغْذِيَةِ ؟ ! وَأَقْسَمُ لَوَاتَّخَذَ بُرْمَةً مِنْ فَوَادٍ مَهْجُورٍ ، وَوَضَعَنِي مِنْ مِثْلِهِ عَلَى
تَنْوَرٍ ، لَا قَضَى بِي حَاجَةٌ ، وَلَا عَدِيمٌ مَنِّي نُيُوءًا وَفَجَاجَةً ، وَإِنَّ لَهُ فِي بَنِي مَا لَا يَجِدُهُ
فَتًى مِنْ طَيْبِ الْمَشَمِّ ، وَلَذَّةِ الْمَطْعَمِ ، وَالتَّوْلِيدِ لِأُخْمَرٍ مَا يَكُونُ مِنَ الدَّمِ وَأَنِّي
كَالْفُرُوجِ اسْفِيدَ بَاجَا ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْدِلَ مِزَاجاً ؟ »

وهكذا استطاع الديك أن يفحم صاحبه ، وأن يخجله فيعدل عن ذبحه ، و يفوز
بالحفاظ على حوبائه .

و ينهى ابن الشهيد مقامته هذه ، أو هذا المشهد من مقامته الطويلة بقور

« فزكّى قوله كل من حوله ، لم يألوه تعظيماً ، واتخذوه من ذلك اليوم حكيماً ،
وصرف البدوي من الطافه ، ما أحسن به قرى أضيافه ، وختم نوبة برّه ، بالرغبة في
بسط عُذْرِهِ ، فسمعنا منه ، ورحلنا سحراً عنه » .

ونتواى بعد ذلك قصور بعضها إليه من ساء من هذه المقامه الطويله صعد
ولكن بعض اقتباسات ابن ساء تأتي مستسرة لا تكاد نبىء عن شىء وربما
استوفى ابن ساء عندها اعجابه بالصعده اللفظيه أو إجادة الوصف . من ذلك
وصف عن الماء ووصف الصيد ، ولكننا نتوقف عند إحدى هذه اللوحات عندما
يبدأ ابن ساء اقتباسه من خلال كلمات رجل تلتقى به الجماعة فيحدثها عن
مغامرة له في أحد الأديرة حيث الخمر والعرب والفتنة .

وكان هذا المحدث بليغا في وصف ما عاين هنالك بحيث تخرج القوم من
استرساله في هذا الحديث بحضرة فقيهم ، وإن نفوسهم لتشرئب إلى استزادته ،
وجعلوا يظهرون ضروب التعفف وألوان التأفف ، ولكن سرعان ما تغير حالهم
عندما طلعت عليهم شמוש وأقمار من فتيات وفتيان ومعهم قسيس أقسم على
الجماعة بحسن هؤلاء أن ينزلوا عليهم ، فلم يملكوا مع هذا البمين إلا أن ينقادوا
فكان من أمرهم ما كان :

« فلما أكثر محدثنا بحضرة الفقيه ، من هذا التشبيه ، ومن هذه المحاسن ،
المحركات لكثير من السواكن ، قطننا له وجوة الاستكراه وعضضنا له على
الشفاه ، فبينما نحن كذلك نكثر لغطا ، ونرى الحلول بالمسيحيين غلطا ، إذ نظرنا
إلى أطراد صفوف من أعطاف خنثة وخصور هيف ، وشמוש وأقمار ، على أفلاك
جيوب وأزرار ، لاسيوف إلا من مقل ، ولا ذرق إلا من خجل ، ولا عارض إلا من
خلق ، ولا صناعة غير تخليق ، ولا اسم غير عاشق ومعشوق ، فتشفع القسيس
بُحسني خدودهم ، وأقسم بِنعمة قد ودهم ، إلا أجزلتهم المنة ، وثيئتُم الأعيئة تعريجا
الينا ، وتحكما في المال والولد علينا ، فكممت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة .
وجلنا جولان الزناير ، على هيف الخصور ، بما بقى من الطريق ، غص الدماليج
بغيدال الشوق ، حتى وافينا الباب ، وانحنا الركاب ، وتولى الحر ، ضروبا من
البئر ، غير أنه قنع بالذن وجه مدامه ، تقنع الورد بأكمامه ، وقضانا من الإكرام
ناقلة وفرضا ، وشدنا الجياد عنه ركضا)

لذا حق لابن الشهيد عندما رأى في الطريق أطلال كنيسة قديمة أن يقول :

أَنْتِ تَأْتِثُ لَابِنْ أَدَمَ قُدْرَةً حَتَّى اسْتَقَامَ وَتَمَّ ذَاكَ الْمَنْصِبُ
وَمِنْ أَثَى أَرْضٍ كَانَ رَائِعُ مَرْمَرٍ كَسَوَاعِيدِ الْغِزْلَانِ فِيهَا يُجْلَبُ ؟
كَمْ صَادَ إِبْلِيسُ بِهَا مِنْ تَائِبٍ بِحَبَائِلِ الْقَى بِهِنَّ تَرْهَبُ !
وَكَمْ ابْتَنَى الْقَسَائِسُ فِيهَا مِثْبَرًا مِنْ جُودَرٍ وَبَدَا عَلَيْهِ يَخْطُبُ !
سَقِيًّا لَهَا مِنْ دَارِ غَى لَمْ يَنْزَلْ فِيهَا كَرِيمٌ بِالْمِلاَحِ مُعَذَّبُ
كَلًّا وَمَا زَالَتْ نُجُومٌ مُدَامَةً فِيهَا بِأَفْوَاهِ النَّدَامَى تَغْرُبُ
بِئْسَ الْمُصَلَّى إِنْ أَرَدْتَ تَعَبُدًا فِيهِ وَلَكِنْ كَانَ نِعَمَ الْمَشْرَبُ

وفي اللوحة الأخيرة فيما نقله ابن بسام من هذه المقامة يلتقى الجمع بفتى من فرسان النصارى جميل الطلعة ، وصفه ابن الشهيد بقوله :

« ثم لم نزل نسرى سرى النجوم فى الدياجى ، إذ تلقانا شاب كما ذهب عقيق خدييه ، ونم شاربه بالتذكير عليه ، متقلد حسام كأنما طبع من لحظه لا من لفظه ، على جواد ظمان الأسافل كخضره ، ريان الأعالى كيرذقيه ، تستعيد غيوان البررة من النظر إليه ، وتزدحم أطماع الفجرة حوائيه :

ذو مقالة شهلاء روميّة وذو لسان عربى مبين
قلت وقد عيب بتثليثه مقال ذى رأى وعقل رصين
طلعت منه الدنيا ويا قلما يجمع للإنسان دنيا ودين »
لكن الفتى يقبل عليهم باكيا ليخبرهم أنه هارب من النصارى لدخوله فى الإسلام وطلب أن يؤذن له بمخاطبة الفقيه ، فلما أذن له حياه وقال :

« أيها الفقيه ، للأشياء غايات تنهى إليها ، ومقادير تجرى عليها ، أما والخلاق العليم ، والفاطر الحكيم ، الذى أسعد قوما بالهداية وأثابهم عليها ، وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم بها ، لقد أنحلتنى عبادة الطواغيت فعبدت الصليب ، وقرعت الناقوس ، وفعلت كل ما قررت به عين إبليس ، قدّر لم يكن ليخطبنى ولا يتخطانى ، إلى أن استنقذنى ربى وهدانى ، وأنا أشهد أيتها الأشهاد أن الله إله واحد ، ليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكن الأكوان : لأرض ولا ماء ، ولا دخان ، مخترع الكل ومنشئه ، ومعيده ومبيده ، له المثل الأعلى ، والأسماء الحسنى » .

عند هذا الحد ينهى ما اقتطفه ابن سناء من هذه المقامه .

وإذا كنا لا نذهب مع الدكتور إحسان عباس في قوله (٧٦) :

« .. المقامة هنا تطلق على قصة (نزهة) ووصف مشاهد ونصص الموصف
النثرى بالشعر ، وليس وراء مفهومها الظاهري فيما أرى أية رموز أرادها صاحبها —
أما لماذا قدمها لابن الحديدى ، وهل لها من صلة بالمقدمة عن فن الكتابة ؟ وهل
يمكن من سياقها كله استنتاج غاية وراء إظهار البراعة البلاغية فتلك أسئلة
لا نستطيع أن نجيب عليها . »

فإننا لا نستطيع أن نوافق الباحث عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي حين يرى
أن هذه المقامة تعتمد على الإيحاء من خلال الرمزيات من المعانى السياسية ،
و يعلق على حكاية البدوى والديك بقوله : (٧٧)

« هنا تنحو المقامة منحى سياسيا فى الرمز ، خاصة اذا علمنا أنها مهداة إلى
الشيخ الجليل (ابن الحديدى) وهو فقيه كان له دور بارز فى التاريخ السياسى
للأندلس على عهد الطوائف فهذا الديك الهرم المسكين المستباح دمه ظلما
وعدوانا هو ، فى تقديرى ، فقيها ابن الحديدى . »

فهذا الرأى الذى ذهب إليه ، والذى يزعم معه أنه قد وجد الإجابة عن
تساؤلات إحسان عباس ، لم يقدم عليه دليلا واحدا مقنعا .

ولو أننا تمادينا مع الخانجي فى خياله المفرط لقلنا له إن مصيرديكنا يختلف عن
مصير فقيه ابن الحديدى ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن الفقيه ابن الحديدى الذى
يعنيه قد توفى سنة ٣٦٨ هـ (٧٨) ، أما ابن الشهيد فقد كان حيا يرزق فى حدود
الأربعين وأربعمائة بالمرية حيث قابله الحميدى (٧٩) صاحب جذوة المقتبس

(٧٦) تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٠

(٧٧) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ١٨٧ — ١٨٨

(٧٨) راجع الذخيرة : ١٥٢/٤ ، ١٥٤

(٧٩) جذوة المقتبس للحميدى : ٣٠٢ (القاهرة ، دار المصرية للتأليف ، مطابع سجل
العرب ١٩٦٦ م) ، ونقل ذلك عنه الضبى فى بغية الملتصق : ٤٠٧ (القاهرة ، دار الكاتب
العربى ، مطابع سجل العرب ١٩٦٧ م) .

وكتب عنه طرفا من أشعاره ، و يتضح لنا من هذا أن الفارق الزمني بين الرجلين يتجاوز اثنين وسبعين عاما ، وهذا ينفي أن يكون ابن الشهيد قد عايش ابن الحديد وتأثر بما جرى عليه ، فضلا عن أن يهديه مقامته .

ولا أدري كيف وفق الخانجي بين أن تكون المقامة مهداة إلى ابن الحديد ، وأن يكون فيها رمز إلى حادثة قتله .

وعلى أية حال فإن ابن الشهيد لم يهد مقامته لرجل مقتول أو منكوب ، ولكنه أهداها إلى رجل سعيد الحظ في دنياه وهذا ظاهر في قوله (٨٠) :

« كحركات الفقيه ابن الحديد ، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب وفي مفارقها تيجان نخوة وإعجاب » .

لاشك بعد ذلك في أن هذا ابن الحديد رجل آخر غير ابن الحديد الذي أشار إليه إحسان عباس إشارة خاطفة (٨١) ، فالتقطها الخانجي وبنى عليها مابنى .

والذي أراه في هذه المقامة التي تبدو لنا من خلال اقتباسات ابن بسام أشبه ما تكون بقصيدة جاهلية متعددة الأغراض ، ويختلط فيها الطابع المقامي بالقصص الحيواني وأدب الرحلات ، تجمع بين أطرافها الرغبة في الهزل الذي يخرج أحيانا إلى السخرية اللاذعة التي تقوم على إبراز التناقض والتباين الموجودين في نفوس الناس وطبائع الأشياء ، نلمح ذلك فيما رواه عن أقوال البدوي المتحضر وأفعاله وهيئة بيته ثم في صورة القس الذي يقود على من معه من أبناء ملته ، بل في صورتهم هم وفقيرهم حين استباحوا لأنفسهم كرم هذا القس ، ونلمحه أيضا في حديثه عن الكنيسة التي بنيت أصلا لتكون دارا للعبادة ، ولكن مايجرى فيها جعلها داره وفجور ، وفي صورة ذلك الفتى البارع الجمال الذي استوفى نصيبه من الدنيا حتى ليظن أن لا نصيب له في الدين ، وإن كنا لا ندري آخر أمره معهم .

ونستطيع أن نقول إن ابن الشهيد توجه إلى إبراز هذه المعاني المحاليات في معارض هزلية بوعى ، وقد نص عليه في مقدمة مقامته حيث يقول (٨٢) :

(٨٠) الذخيرة : ٦٧٥/١

(٨١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٠

(٨٢) الذخيرة : ٦٧٥/١

« ... ولئن مرّت بك كلمات مُحالِيّات ، تنظمها سلوكُ هَزْلِيّات ، فإنما هي أوصاف طابقت موصوفاتها ، وُحُلّى على أقدار مُحلِيّاتها ، والبليغُ كالجوهرى ووجد الشعب ، فى نظم الدر أو المخلّب ، وكالصّائغ ووجد العناء فى سبك الصّفر أو الفضة البيضاء ، وكالعقاب ووجد الانهواء ، على الصقر أو المُكّاء ، والعاقل من برز يوم السّرور فى زىّ الأعياد ، ويوم الحزن فى ثياب الحداد ، وسيّان فى الفجاجة والبرّد ، من جدّ عند الهزل أو هزل عند الجدّ »

لذا فإننى لا أتفق مع عبد الرّؤف الخانجى حين حاول أن يستشف من هذه المقامة بعض الملامح الاجتماعية والحضارية للبيئة الأندلسية بطريقة مباشرة كقوله (٨٣) :

« ... ثم تمضى واصفة منازل الريف الأندلسى من الداخل والخارج ، تتحدث عن فن البناء ، بل وعن (الديكور) والزينة داخل الدار » .

إن مثل هذا القول مرفوض تماما لأن ابن الشهيد هنا لا يصف أهل البدو أو أهل الريف الأندلسى وبيوتهم ، وإنما يصف رجلا بعينه ، ربما لم يكن له وجود إلا فى خياله ، وأراد أن يصنع منه إحدى عجائب البحر ، فى نفسه وزية وبيته وعلى هذا النحو لا ينبغى لنا أبدا أن نتصور أن كل فقهاء الأندلس كانوا يقبلون على الشراب والفسق ، أو أن الكنائس الأندلسية جميعا تخلت عن أداء مهامها الدينية وصارت مواخير وأوكار لذة ومجون .

* *

وفى المرية ، وفى عهد ابن صمادح (٨٤) أيضا عاش الأديب أبو محمد بن مالك القرطبى مدة يمدح صاحبها ، ويبدو أن الرجل عاش حياة بائسة جعلت صوت المال يعلو فى شعره ، ويخرجه إلى التصريح بالسؤال فى لهجة منفرة على نحو قوله لابن صمادح (٨٥) :

(٨٣) فن المقامة والرسالة الأدبية فى الأندلس : (خط) ١٨٦

(٨٤) سنة ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ

(٨٥) الذخيرة : ٧٤٠/١

مضى العطر والاضحى ولا نيل يفتصى فلم اخمست وحدي اليك مطالبي ؟
وكم عفتُ قديماً من جزيل مواهب وقد خطبثني من جميع الجوانب
سأرحلُ عنكم دون زاد لبُلغية وتلك عمري سبة في العواقب

و يبدو أنه سئم هذا اللون من التسول الصريح وشكوى الفقر في أشعاره ،
فلجأ إلى نعمة جديدة يلتمس منها لنفسه بعض العزاء عن واقعه المر ، ويتسامى بها
على خله الوفي الآخذ بخناقة (٨٦) :

« وما زال يعلن باضطرابه ، ويشكو الفقر في أشعاره ، حتى أعياه ذلك فجعل
بعد يصف الغنى واليسار هنالك ، تعريضا وتطييبا ، فمن ذلك قوله من جملة
قصيدة :

وما نذكر الإعدام إلا تخيلاً لكثرة ما أغنى نداءه وما أفتى -
وأكثر ما نخشاه طغيان ثروة فإننا نرى الإنسان يطغى إذا استغنى

فقال له بعض أصحابه : ومن أين هذا الغنى وقديما تشكو الفقر ؟
ومضوا معه إلى منزله فاجدوا معه غير قلة فخار وقدر للماء ، ونحو ثمانية
أرطال دقيق في مخللة » .

ومع أن ابن بسام يعترف بأنه لم يقف على الكثير من شعره ونثره (٨٧) :
« ولم يقع إلَيَّ من شعره ونثره إلا نبذة . كإيماء المريب بذات صدره » أطلعنا
على مقامة له اقتضها لطلوها وساق بعض فصولها (٨٨) ، ومن هذه الفصول يتضح
١: أن موضوعها الرئيس هو مدح ابن صمادح واستمناحه ، و يبدو أنه أنشأها حين
انتصار ممدوحه على بعض أعدائه ، وهو يصف لنا جو المعركة وصفا تفصيليا يظهر
فيه قدرته اللغوية (٨٩) :

(٨٦) القخيرة : ٧٤٠/١

(٨٧) المرجع السابق : ٧٣٩/١

(٨٨) المرجع السابق : ٧٤١/١ - ٧٥٢

(٨٩) المرجع السابق : ٧٤٢/١

« لانسَمْعُ إِلَّا هَمَّهُمَّةٌ وَصَهِيلًا ، وَفَعْقَةٌ وَصَلِيلًا ، فَخَلَّتْ الْأَرْضُ تَمِيلُ مِيلًا ،
وَالْجِبَالُ تَكُونُ كَثِيبًا مَهِيلًا ، لَا تَعْلَمُ لِأَصْوَابِ تِلْكَ الْغَمَاغِمِ وَضَوْضَاةِ تِلْكَ
الْهَمَاهِمِ ، مِنْ وَتَوَاهِ صَهِيل ، وَدَرْدَابِ طَبُول ، أَزْيِيرُ لُيُوثِ بَآجَام ، أَمْ قَعْقَعَةُ رَعْدٍ فِي
ازْدِحَامِ غَمَامٍ ؟ ... »

وحين يلوح وجه ممدوحه تتغاير الصورة :

« متى لاح لنا من مَلِكِ الْأَمْلاكِ ، وثالث القمرين في الأفلاك ، وجه جلّ
هَبْوَةٍ ذَلِكَ الْعِثْرِ ، والعجاج الأَكْدَرِ ، فحين جَلَّتْ غَرَّتُهُ الْغَرَاءُ الْغُبَارُ ، لم نَدِرْ أَبَدُرُ
الليلِ أَمْ شَمْسُ النَّهَارِ » .

ثم ينتقل إلى وصف أسلحة المعركة وعزيمة ممدوحه ، واستسلام عدوه له ويحذر
المغتربين بسماحة خلقه من صواعق غضبه ، ثم يظهر الغبطة لاختياره هذا الممدوح
دون سواه :

« فله أتى مراد رُدَّتْهُ ، وأتى مَوْرِدٌ وَرُدَّتْهُ ! لم أكن مَمْنٌ غَرَّهَ الشَّرَابُ ، حين
أَنْبَرَزَ الشَّرَابُ ، وَلَا كُنْتُ كَمَنْ زَجَرَ الطَّيْرَ بِالتَّجَمِّ وَالذَّبْرَانِ وَلَا مَن سَقَطَ الْعِشَاءُ بِهِ
عَلَى سَرْحَانٍ وَلَا كَمَنْ قَالَ مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ كَلًّا ! ان مَمْلُوكَكَ أَلْقَى أَرْوَاقَهُ ،
حَيْثُ مَدَّ الْجُدُّ رُوقَهُ ، بَحِثْ يُعْتَصِرُ النَّدَى مِنْ عُودِهِ ، وَ يَرْتَشِفُ صِرْفُ الْجُودِ مِنْ
نَاجُودِهِ فَانْتَقَيْتُ الْجَارِقِلَ الْمَنْزِلَ ، وَبَوَّأْتُ رَحْلِي فِي الْحِلِّ الْمُبْقِلِ ، وَرَتَعْتُ فِي
الرَّغَمَامِ الْمُسْبِلِ »

ثم ينتقل إلى التهويل في مدح ابن صمادح :

« مَا رَأَيْتُ وَجْهًا أَسْمَحَ ، وَلَا جِلْمًا أَرْجَحَ ، وَلَا سَجِيَّةً أَسَجَحَ ، وَلَا بَشْرًا أَبْدَى ،
وَلَا كَفًّا أُنْدَى ، وَلَا غُرَّةً أَجْمَلَ ، وَلَا فَضِيلَةً أَكْمَلَ ، وَلَا حَلْقًا أَصْفَى ، وَلَا وَعْدًا
أَدْفَى ، وَلَا ثُوبًا أَطْهَرَ ، وَلَا سَمْتًا أَوْقَرَ ، وَلَا أَضْلًا أَطْيَبَ ، وَلَا رَأْيًا أَصَوَّبَ ، وَلَا لَفْظًا
أَعْدَبَ وَلَا عِرْضًا أَنْقَى ، مِمَّا خَصَّ اللَّهُ بِهِ ثَالِثَ الْقَمَرَيْنِ ، وَسَرَّاجَ الْخَافِقَيْنِ ، وَعَسَادَ
الْمَسْلُوكَيْنِ ، الْمُعْتَصِمَ بِاللَّهِ ذَا الرِّيَاسَتَيْنِ دَامَتْ رَايَاتُهُ مَنْصُورَةً ، وَأَيَاتُهُ مَنْظُورَةً ... »

وهي كما نرى عبارات مرصوفة محفوظة طالما دارت في شعرنا ونثرنا القديم ،
.. كعاد تحمل طابعا ذاتيا ، لذا كان ابن بسام دقيقا في إشارته المختصرة حين قدم

هذه المقامة بقوله : « تعرب عن حفظ كثير » .

و ينتهى اختيار ابن بسام من هذه المقامة بفصل يعرض فيه بحاجته و يشكو فاقته :

« و يالهفى ألا تكون معونتى له إلا باللسان ، دون السنان ، أطاعن أمامه دِرَاكَا ، وأزاجمُ قُدَّامه الأقران لكاكا ؟ ولولا أفرُخُ كزُغب القطا ، يدبُّون فى نائله عندى دَبِيبَ الكرى ، فيستشفون عُلالتى ، و يستنزفون بُلالَتى لامتطيت من جُدواه السابح اليعبوب ، وتقلَّدتُ من نداء الصَّارم الرسوب ، واعتقلتُ من عَطائه الصَّعدة السَّمرء وادَّرعْتُ من جِبائه الفضفاضة الجدلاء »

و يبدو أن المقامة لم تقتصر على المدح بل تخطته إلى أغراض أخرى ، وضمت إليه فصولا نقدية طويلة تناول فيها شعراء العربية وكتابها من الجاهلية إلى عصره ، و يبدو أنه كان قاسيا فى أحكامه عليهم كما يظهر من قول ابن بسام (٩٠) :

« ومثَّ ابن مالك فى رسالته هذه أطناب الإطناب ، وشنَّ الغارة فيها على عدَّة شعراء و كُتَّاب ، من جاهليين ، ومخضرمين ، ومحدثين ومباصرين ، ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميع ما وصف ، وانصرف إلى كلِّ أحدٍ كلامه ، نشره ونظامه ، لحَصَلَ هو ساكتا وبقى باهتا » .

ومن مقامات القرن الخامس أيضا مقامة لابن المعلم أبى الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم (٩١) ، رواها ابن بسام فى الذخيرة (٩٢) ، وهى من مقامات المدح الخالص ، و يرجح إحسان عباس أنه قالها فى المعتضد إذ كان وزيرا له (٩٣) وهى لا تختلف عن سابقتها فى الإغراق فى وصف الممدوح والمبالغة فى رصد مناقبه وإظهار الحاجة إلى عطاياه وإن كانت أقرب منها إلى النفس ، لأن ابن المعلم ساقها فى ألفاظ سهلة وتراكيب مقبولة ، كما أدخل عليها شيئا من

(٩٠) الذخيرة : ٧٥٢/١

(٩١) جذوة المقتبس : ٧٠ رقم ١٠١ (ت ٤٨٨ هـ) ، وبغية الملتبس : ١٠٤ رقم ٢٠٣

(٩٢) الذخيرة : ١١٣/٢ - ١١٨

(٩٣) تاريخ الأدب الأندلسى ٣١٣ وانظر الذخيرة : ١١٢/٢

الحياة حين أدارها على نفسه وكأنه نصب ذاته بطلا لها ، وأدخل عليها شيئا من الحياة حين أدار في بعض فصولها حوارا بينه وبين بعض أصدقائه حين رأى عزمه على الرحيل طلبا للنوال جاء فيه :

« ونخل لى نصيحتة وقال : أرى أن لا ترم بيضتك وأرومتك ، وأن توطن أرضك ولا تفارق عشيرتك ، وأربأبك عن مضلات المنى ، وأعيدك من ترهات لعل وعسى ، فتحسب كل بيضاء شحمة ، وتظن كل سوداء ثمرة ، وربما سقظ العشاء بك على سرحان ، وكل الناس بكرة وفي كل واد بنو سعد :

والرفق بمن والأناة سعادة فاستأن في رفق تلاق نجاحا

وإن أبيت إلا التحول : ، فعليك من الرؤساء بأحلم العلماء ، ومن القرباء بأشرف الشرفاء ، ولا تغررك المناصب ، دون المناسب ، ولا المقول دون المعقول ، ولا الدراهم دون المكارم ، وازهد في أكثر كل عين ، واذكر قول ابن الحسين :

وما رغبتى في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر أستجده
فلما سمعت ووعيت ، ارتكنت وتوليت ، ثم أبيت قبولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وناقضت نصحه بقول حبيب :

وإن صريح العزم والرأى لامرئ إذا بلغته الشمس أن يتحولا

ومغتبرا بقول الثانى :

تلقى بكل بلاد أنت نازها أهلا بأهل وجيرانا بجيران»

وهكذا يمضى ابن المعلم فى مقامته ، يظهر لنا كيف ركب رأسه ، فلم يظفر من اغترابه بغير الشقاء والندم ، فلما تمكن منه اليأس قرع بابه بشير مولاه يحمل إليه كتابه ، وهنا يسبح لابن المعلم المخلص المدحى . ليعرض شعره ونثره فى ممدوحه حين تفاوض والرسول فى وصف معاليه ، واستنشد الرسول ما قال فيه .

أكثر مما فاتنا من مقامات المشاركة ، فقد تعرضت الآثار المغربية والأندلسية لعوامل الضياع والاندثار ، وما بقي منها لم ينشر أكثره الى اليوم .

ومن هذه الآثار التي تأدت إلينا أسماؤها دون شخوصها مقامات محمد بن الحسن الطوسي الذي عاش في صقلية وتولى الإنشاء بها ، وكان نحويا يحترف الطب (٩٤) ، كما كان شاعرا مفلحا وكاتباً مجوداً متفنناً في الرسائل حتى مدحه ابن القطاع بقوله (٩٥) :

أنت في النثر البديع ———— في النظم السلامي
فاضل الآباء والنفس ———— س عظامي عصامي

و يبدو أنه برع في مقاماته فقد ذكر القفطي أنه ألف مقامات حسنة (٩٦) .
وصفها بقوله (٩٧) :

« وله مقامات تزرى بمقامات البديع ، وإخوانيات كأنها زهر الربيع »

ولا شك في أن هذه التجارب المقامية كانت إلى جوار عمل البديع جذوه قبس منها الحريري حين أتيح له في مطلع القرن السادس أن يخرج على جمهور الأدباء بعمله الأدبي الشامخ ، الذي بهر به الناس إلى يومنا هذا ، وأحدث به حركة أدبية أتاحت لهذا الفن ما لم يتح له من قبل من النضج والازدهار .

(٩٤) الخريدة/المغرب : ٥٦/١

(٩٥) إنباء الرواة : ١٠٧/٣

(٩٦) المرجع السابق : ١٠٨/٣

(٩٧) المرجع السابق : ١٠٧/٣ ، وانظر المحمدون من الشعراء : ٣٥٤

أهم المصادر والمراجع

اولا : النصوص المقامية :

— بدیع الزمان الهمدانی : مقاماته بشرح الشيخ محمد عبده ، دار المشرق ،
المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة السابعة ١٩٧٣ م .

— ابن بطلان الطيب : أبو الحسن المختار بن الحسن
— دعوة الأطباء (على مذهب كلية ودمنة)
بتصحيح بشارة زلزل ، الاسكندرية ، المطبعة
الحديوية ١٩٠١ م .

(٥١٠ — ٥٩٧ هـ) :

— ابن الجوزي

— مقاماته

١ — المقامات الجوزية في المعاني الوعظية
وشرح الكلمات اللغوية
الأسكوريال رقم ٥٤٢ ، مصورة معهد
المخطوطات العربية ٣/٥١
ب — بتحقيق على جميل على مهنا ، رسالة
دكتوراه — كلية اللغة ، جامعة
الأزهر ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م

أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان
البصري (ت ٥١٦ هـ)

— الحريري :

— مقاماته : أ — القاهرة ، المطبعة الحسينية
١٣٢٦ هـ

ب — بيروت ، دار صادر ، دار
بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥

أبو العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي
مقاماته (مقامات الحنفي وابن نايقا وغيرهما)
استانبول ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ

— الحنفي :

— الزمخشري :

جار الله أبو القاسم محسود بن عمر (٤٦٧ هـ —
٥٣٨ هـ)

— مقامات الزمخشري

الفاهرة ، مطبعة التوفيق ، الطبعة الثانية

١٣٢٥ هـ

— السرقسطي :

أبو الظاهر محمد بن يوسف بن عبد الله المازني
(ت ٥٣٨ هـ)

— المقامات اللزومية

بتحقيق بدر أحمد ضيف ، الهيئة المصرية

١٩٨١

— ابن شرف القيرواني :

أبو عبيد الله محمد بن شرف (ت ٤٦٠ هـ)
— أعلام الكلام

عنى بتصحيحه وضبط ألفاظه عبد العزيز

أمين الخانجي ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الاولى

١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م وانظر الذخيرة ٤ / ١٩٦ —

٢١١

— المقامة (الجرجانية) الذخيرة ٤ / ٢١٢ — ٢١٤

— ابن شهيد الأندلسي :

— التوابع والزوابع

١ — الذخيرة ١ / ٢٤٥ — ٣٠١

ب — بتصحيح بطرس البستاني ،

بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

— ابن الشهيد التجيبي :

أبو حفص عمر

— مقامة (مشاهدات) في مدح الفقيه ابن الحديد

الذخيرة ١ / ٦٧٤ — ٦٨٥

— ابن الصقيل الجزرى : — المقامات الزينية

بتحقيق عباس مصطفى الصالحى ، رسالة
دكتوراه ، كلية دارالعلوم ، جامعة القاهرة
١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

(عبد الرحمن) :

— ابن فتوح :

— مقامه (عن الشعراء) (رمضان سنة ٤٣٠ هـ)
الذخيرة ١ / ٧٨٦
— مقامه (الغلام المعذر) الذخيرة ١ / ٧٧٨

أبو محمد :

— ابن مالك القرطبى :

— مقامه فى مدح ابن صمادح (٤٤٣) —
٤٨٤ هـ) الذخيرة ١ / ٧٤١ — ٧٥٢

أبو عبد الله محمد

ابن مسلم :

— طى المراحل (مقامه مدحية نستطيع ردها الى
سنة ٤٥٢ هـ) الذخيرة ٣ / ٤٣٩

أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم

— ابن المعلم :

— مقامه مدحية قالها فى مدح المعتضد (ت ٤٨٨
م) الذخيرة ٢ / ١١٣ — ١١٨

أبو القاسم عبد الله (وقيل عبد الباقي) بن محمد

— ابن نايقا :

بن الحسين بن داود (٤١٠ — ٤٨٥)

— مقاماته : نشرت مع مقامات الحنفى فى مجلد
واحد بعنوان مقامات الحنفى وابن نايقا وغيرهما
استانبول ، مطبعة أحمد كامل ١٣٣١ هـ

— المقامة الأولى (فى الضب)

وانظر تطور فن المقامة ص ٩٥

نابيا : المصادر والمراجع العربية القديمة :

١- المخطوطات :

— ابن دريد :

أبويكر محمد بن الحسن (٢٢٣ — ٣٢١هـ)

— الأخبار المنشورة المروية

مخطوط مصور برقم ٩١٣ أدب بمعهد
المخطوطات العربية عن المكتبة الخالدية بالقدس
١٥ مهمل (دشت)

— أمالي ابن دريد (تعليق) رواية أبي مسلم
محمد بن أحمد بن علي الكاتب عنه مخطوط مصور
بمعهد المخطوطات العربية برقم ٩٨٦ أدب عن
الخزانة العامة بالرباط ١٥٣ ق

— من أخبار أبي بكر بن دريد

مخطوطة دار الكتب رقم ٦ لغة ش وعنها
مصورة برقم «١٠م» بمكتبة كلية الآداب جامعة
الإسكندرية

مخطوطة مكتبة رئيس الكتاب رقم ٢٢٩٦٧
وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية (١١ أدب)
وأخرى بمكتبة جامعة القاهرة (٨٧٩).

أبو عبد الله محمد بن أحمد

— ابن هشام اللخمي :

— ذكر نسب أبي بكر بن دريد وجل من أخباره
مخطوطة مكتبة الزاوية الحمزاوية تحت رقم

ب — رسائل جامعية مخطوطة :

— بدر أحمد ضيف :

— مقامات السرفس على اللزومية (دراسة وتحقيق)

رسالة دكتوراه — كلية الآداب — جامعة الإسكندرية ١٩٧٩ م

— طلعت محمد اسماعيل أبو فرحة :

— مقامات حميد الله الفارسية مع ترجمتها إلى العربية ومقارنتها بمقامات بديع الزمان الهمداني
رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الآداب
جامعة عين شمس ١٩٦٣ م .

— عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي :

— فن المقامة والرسالة الأدبية في الأندلس
رسالة دكتوراه مخطوطة — كلية الآداب
جامعة القاهرة ١٩٧٤ م

— على جميل على مهنا :

— ابن الجوزي ومقاماته الأدبية
رسالة دكتوراه — كلية اللغة جامعة الأزهر ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م

— محمد رشدي حسن :

— تطور فن المقامة العربية
رسالة دكتوراه مخطوطة — كلية الآداب
جامعة القاهرة ١٩٦٠ م

ج - المطبوعات :

— ابن الأثير:

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر
القضاعي (٥٥٩—٦٥٨ هـ)

الحلة السراء ، بتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ،
الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى
١٩٦٣ م

— إبراهيم بن المدبر:

(تنسب إليه)

— الرسالة العذراء ، بشرح وتحقيق زكي مبارك ،
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة
الثانية ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م

— ابن الأثير:

ضياء الدين

— المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،
بتحقيق أحمد الحوفي وبدوى طبانة ، القاهرة ،
مطبعة الرسالة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م

ابن الأثير:

علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)

— الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار صادر ، دار
بيروت ، ١٩٦٧ م .

الإدقوى :

أبو الفضل كمال الدين جعفر بن
ثعلب (ت ٧٤٨ هـ)

— الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ،
بتحقيق سعد محمد حسن ، ومراجعة طه الحاجري
القاهرة ، الدار المصرية للتأليف
والترجمة ١٩٦٦ م .

— الأربلى :

بهاء الدين على أبو الحسن
— رسالة الطيف ، بتحقيق عبد الله الجبورى ،
بغداد ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ١٣٨٨
هـ / ١٩٦٨ م .

— الأزهرى :

أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ)
— تهذيب اللغة (الجزء الأول) ، حققه عبد
السلام محمد هارون وراجعته محمد على النجار ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

— أسامة بن منقذ :

(٤٨٨ — ٥٨٤ هـ) :
— العصا بتحقيق حسن عباس ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٨١ م .

— الأصمعى :

أبوسعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك
(١٢٢ — ٢١٦ هـ)
— الأصمعيات بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر
وعبد السلام هارون ، القاهرة دار المعارف بمصر ،
الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
— فحولة الشعراء ، شرح وتحقيق محمد عبد المنعم
خفاجى وطه محمد الزينى ، القاهرة ، المطبعة
المنيرية بالأزهر ، الطبعة الأولى ١٣٧٢
هـ / ١٩٥٣ م

— بديع الزمان الهمداني :

— ديوانه بالتزام الشيخ عبد الوهاب رضوان ،
ومحمد شكرى المكى القاهرة ، مطبعة الموسوعات
١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م .
— رسائله ، القاهرة ، مطبعة هندية ، طبعة رابعة ،
١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م

— البديعى :

الشيخ يوسف (١٠٧٣ هـ)

— الصبح المنبى عن حيشة المتنبي ، بتحقيق
مصطفى السقا ، ومحمد شتا ، وعبد زيادة
عبد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

— ابن بسام الشترينى :

أبو الحسن على

— الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، بتحقيق
احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ١٣٩٩
هـ / ١٩٧٩ م .

— البيهقى :

إبراهيم بن محمد

— المحاسن والمساوى (ينسب إليه) ، بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، مكتبة نهضة
مصر ومطبعتها ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

— ابن تغرى بردى الاقباكى : جمال الدين أبى المحاسن يوسف

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ،
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية .

— الثعالبي :

الامام أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابورى
(ت ٤٢٩ هـ)

— يتيمة الدهر ، بتحقيق محمد محيى الدين
عبد الحميد ، بيروت دار الفكر ، الطبعة الثانية
١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣ م

— الجاحظ :

— البخلاء ، تحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى ،
القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧١ م .
— البيان والتبين تحقيق عبد السلام هارون ،
القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، الطبعة الثانية
١٩٦١ م .

— حاجى خليفه :

مصطفى بن عبد الله . كاتب حبيبى (١٠٦١ هـ)
— كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون .
الأستانه ، طبع بعنايه وكالة المعارف ١٩٤١ —
١٣٦٠ هـ .

— ابن حجر العسقلانى : (٧٧٣ — ٨٥٣ هـ)

— الإصابة فى تمييز الصحابة ، بتحقيق الدكتور
طه محمد الزينى القاهرة ، مكتبة الكليات
الأزهرية ١٩٦٩ — ١٩٧٣ م

— ابن حجة الحموى :

— خزانة الأدب وغاية الأرب ، القاهرة ، الطبعة
الأولى ، المطبعة الخيرية ١٣٠٤ هـ .

— الحصرى القيروانى :

أبواسحق إبراهيم بن على (ت ٤٥٣ هـ)
— زهر الآداب وثمر الألباب ، بتحقيق زكى
مبارك ، بيروت دار الجليل ، مكتبة المحتسب ،
الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

— الحميدى :

أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله
الأزدى (ت ٤٨٨ هـ)
— جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس —
القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مطابع
سجل العرب ١٩٦٦ م

— ابن خالويه :

— الحجة فى القراءات السبع — بتحقيق عبد
العال سالم كرم ، بيروت — القاهرة ، دار
الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

الخطيب البغدادى :

ابوبكر أحمد بن على بن ثابت (٤٦٣ هـ)
— تاريخ بغداد ، القاهرة ، مطبعة السعادة
١٩٣١ م .

— ابن خلكان :

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي
بكر

(٦٠٨ — ٦٨١ هـ)

— وفيات الأعيان ، بتحقيق إحسان عباس ،
بيروت ، دار الثقافة مطبعة الغريب

— الخوارزمي :

أبو بكر

— رسائل الخوارزمي ، بيروت ، دار مكتبة الحياة
١٩٧٠ م

— الخوانساري :

الميرزا محمد باقر الموسوي الأصبهاني

— روضات الجنات في أحوال العلماء
والسادات ، بتحقيق أسد الله اسماعيليان —
طهران ، المطبعة الحيدرية ١٣٩٠ هـ

— ابن خير الأشبيلي :

أبو بكر محمد بن خير بن عمر خليفة الأموي
(٥٠٢ — ٥٧٥ هـ)

— فهرسة ابن خير ، بتحقيق فرنشسكة قداره
زيدين ، وتلميذه خليان ربارة طرغوه ، طبعة
جديدة عن الأصل المطبوع في مطبعة قومش
بسرقسطة سنة ١٨٩٣ م ، المكتب التجاري
ببيروت ، مكتبة المثنى ببغداد ، مؤسسة
الخانجي ، بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٢
هـ / ١٩٦٣ م

— ابن دريد :

أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ)

— الاشتقاق ، بتحقيق عبد السلام هارون ،
القاهرة ١٩٥٨ م

— المجتنى ، حيدرآباد الدكن ، مطبعة مجلس
دائرة المعارف النظامية ١٣٤٢ هـ

— الدلجى :

شهاب الدين أحمد بن على
— الفلاكة والمملوكون ، بعداد ، مكتبة
الأندلس ، مطبعة الآداب بالنجف ١٣٨٥ هـ

— الزبيدى :

محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى
الحسينى الواسطى (ت ١٢٠٥)
— شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر
القاموس ، القاهرة ١٣٠٦ هـ

— الزجاجى :

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠ هـ)
— أماليه بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ،
المؤسسة العربية الحديثة ، مطبعة المدنى ، الطبعة
الأولى ١٣٨٢ هـ

— الزمخشري :

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٤٦٧ — ٥٣٨ هـ)
— اساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ،
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م

— زهير بن أبى سلمى :

— ديوانه ، بشرح ثعلب ، القاهرة ، الدار
القومية ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

— ابن سعيد الأندلسى :

— رايات المبرزين وغايات المميزين ، بتحقيق
النعمان عبد المتعال القاضى — القاهرة ، مطابع
الأهرام ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م
— المغرب فى حلى المغرب — بتحقيق شوقى
ضيف ، القاهرة دار المعارف ، طبعة ثانية منقحة
١٩٦٤ م

— السلمي :

أبو عبد الرحمن (ت ٤١٢ هـ)

— طبقات الصوفية ، بتحقيق نور الدين شريعة ،
القاهرة ، مطبعة دار التأليف ، الطبعة الثانية
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م

— السيوطي :

الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)
— الأشباه والنظائر ، حيدرآباد الدكن ، مطبعة
دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية
١٣٥٩ هـ

— بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، عيسى
الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م .
— المزهر بشرح وتصحيح محمد أحمد جاد المولى
وعلى محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم
(دون تاريخ)

— ابن شاکر الکتبی :

(ت ٧٦٤ هـ)

— فوات الوفيات ، بتحقيق محمد محيى الدين
عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٥١ م

— شهاب الدين أحمد الخفاجي :

— شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ،
مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ

— الصولي :

(ت ٣٣٥ هـ)

— أخبار الشعراء ، المسمى كتاب الأوراق ،
عنى بجمعة ج . هيوارث دن .

— الضبّي :

أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ)
— بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ،
القاهرة ، دار الكاتب العربى ، مطابع سجل
العرب ١٩٦٧ م

— أبو الطيب اللغوى :

عبد الواحد بن على (٣٥١ هـ)
— مراتب السحوبى ، حنفى محمد ابو الفص
إبراهيم ، القاهرة مكتبة هض مصر
١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م

— العباس بن مرداس :

— ديوانه ، جمعه وحققه يحيى الجبورى ، بغداد ،
دار الجمهورية ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

— العباسى :

عبد الرحيم بن عبد الرحمن (ت ٩٦٣ هـ)
— معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ،
بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ،
مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م

— ابن عبد البر :

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
— الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (على هامش
الإصابة)

— ابن عبد ربه الأندلسى : أبو عمر أحمد بن محمد

— العقد الفريد بتحقيق أحمد أمين وإبراهيم
الإبيارى وعبد السلام هارون ، القاهرة ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

— ابن العبرى :

العلامة غريغور يوس أبو الفرج بن هرون
الطبيب الملطى
— تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه أنطون
صالحانى اليسوعى . بيروت ، المطبعة
الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٩٠ م

— العبيدي :

محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد (ق ٨ هـ)
— التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، بتحقيق
عبد الله الجبوري ، بغداد ، المكتبة الأهلية
١٩٧٢ هـ

— العسكري :

أبو أحمد الحسن بن عبد الله (ت ٣٨٢ هـ)
— المصون في الأدب ، بتحقيق عبد السلام
هارون ، الكويت ١٩٦٠ م

— أبو العلاء المعري :

أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ)
— رسالة الصاهل والشاحج تحقيق عائشة عبد
الرحمن ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ م .
— الغفران تحقيق عائشة عبد الرحمن ، القاهرة ،
دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٦٩ م
— الفصول والغايات ، بتحقيق محمود حسن
زناتي ، الهيئة المصرية ١٩٧٧ م .

— علي بن محمد الجرجاني : (٧٤٠ — ٨١٦ هـ)

— كتاب التعريفات ، بيروت ، مكتبة لبنان
١٩٦٩ م

— ابن العماد الحنبلي :

عبد الحى (ت ١٠٨٩ هـ)
— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة
١٣٥٠ هـ

— العماد الأصفهاني الكاتب :

— خريدة القصر وجريدة العصر
١ — قسم شعراء الشام بتحقيق شكرى
فيصل — دمشق ، المطبعة الهاشمية
١٣٧٥ — ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٥ — ١٩٥٩ م

٢- قسم شعراء العراق بتحقيق محمد بهجة
الأثرى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٣٧٥هـ -
١٣٨٤هـ

٣- قسم شعراء مصر ، بتحقيق أحمد أمين
وشوقى ضيف ، وإحسان عباس ، طبع لجنة
التأليف ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م

٤- قسم شعراء المغرب والأندلس ،
بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ،
القاهرة ، دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ١٩٦٤م

(نحو ٨٥ ق . م / ٥٤٠ م)

— عمرو بن قبيصة :

— ديوانه بتحقيق حسن كامل الصيرفى ،
القاهرة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد
الحادى عشر ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م

تقى الدين الأسدى الشافعى (ت ٨٥١هـ)

— ابن قاضى شعبة :

— طبقات النحاة واللغويين ، بتحقيق محسن
غياض ، النجف الأشرف ، مطبعة النعمان
١٩٧٤م

— القالى :

أبو على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى
— كتاب الأمالى ، القاهرة ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٧٥م

أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣—٢٧٦هـ)

— ابن قتيبة الدينورى :

— الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر ،
دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٧
— عيون الأخبار ، القاهرة ، الهيئة العامة
للكتاب ١٩٧٣ ، نسخة مصورة عن طبعة
دار الكتب المصرية ١٩١٤م

— إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، عنى بتصحيحه
السيد محمد أمين الخانجي ، القاهرة ، مطبعة
السعادة ١٣٢٦ هـ

— انباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، مطبعة دار الكتب
المصرية ١٣٦٩ — ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٠ — ١٩٥٥ م
— المحدثون من الشعراء وأشعارهم ، تحقيق
رياض عبد الحميد مراد ، دمشق ، مطبعة
الحجاز ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م

— القلقشندی :

أبو العباس أحمد
— صبح الأعشى ، القاهرة ، دار الكتب المصرية
١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م

— الكلاعى :

أبو القاسم محمد بن عبد الغفور
— إحكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان
الداية ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٦ م

— لبيد بن ربيعة العامري :

— شرح ديوانه ، بتحقيق إحسان عباس ،
الكويت ١٩٦٢

لسان الدين بن الخطيب :

— الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد
عبد الله عنان القاهرة ، مكتبة
الخانجي ١٣٩٣ — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٣ — ١٩٧٧ م

— أبو المطهر الأزدي :

محمد بن أحمد
— حكاية أبي القاسم البغدادي ، هيدلبرج ،
مطبعة كرل ونتر ، ١٩٠٢ م

— ابن مكى الصقلی :

(ت ٥٠١هـ)

— تشييف اللسان وتلخيص الخناك . بتحقيق
عبدالعزير مطر ، الماهره ، المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية ، دارالتحرير للطبع
والنشر ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م

— ابن ناقياء البغدادى :

(٤١٠ — ٤٨٥هـ)

— الجمان فى تشبيهات القرآن ،
ا — بتحقيق عدنان محمد زرزور ومحمد
رضوان الداية (الكويت) المطبعة العصرية ،
الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م
ب — بتحقيق وتقديم الدكتور مصطفى
الصاوى الجوينى ، الإسكندرية ، منشأة
المعاوف ١٩٧٨م

— ابن النديم :

(ت ٣٨٥هـ)

— الفهرست

بيروت ، دارالمعرفة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

— ياقوت الحموى :

أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله
الرومى (ت ٦٢٦هـ)
— معجم الأديباء (إرشاد الأريب إلى معرفة
الأديب) ، نشره أحمد فريد رفاعى ، القاهرة ،
مطبعة دارالمأمون ١٩٣٦ / ١٩٣٨م

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

إحسان عباس :

— تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ،

بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥

— تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف

والمرابطين) بيروت دار الثقافة ، الطبعة

الثالثة ١٩٧٤ م

— تاريخ النقد الأدبي عند العرب — نقد

الشعر — من القرن الثاني حتى القرن الثامن

الهجري ، بيروت ، دار الأمانة مؤسسة

الرسالة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م

— ملامح يونانية في الادب العربي ، بيروت ،

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧ م

— أمين عبد المجيد بدوي :

— القصة في الأدب الفارسي ، القاهرة ، دار

المعارف ١٩٦٤ م

— أنس داود :

— دراسات نقدية في الأدب الحديث والتراث

العربي ، القاهرة مكتبة عين شمس ، دار الجليل

للطباعة ١٩٧٥ م

أنيس المقدسي :

— تطور الاساليب النثرية في الأدب العربي ،

بيروت ، دار المعلم للملايين ، الطبعة

الرابعة ١٩٦٨ م

— حامد عبد القادر:

— القصص الحيوانى وكتاب كلية ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

— حسن السندوبى :

— أدب الجاحظ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ١٩٣١ م .

— الحوفى :

أحمد محمد

— تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨

— أبوخشب :

إبراهيم على

— تاريخ الأدب العربى (فى العصر العباسى الثانى) ، القاهرة دارالفكر العربى ، دارالثقافة العربية للطباعة .

— خفاجى :

محمد عبد المنعم

— الاسلام والحضارة الإنسانية ، بيروت ، دارالكاتب اللبناني الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣

— زكى مبارك :

— النثر الفنى فى القرن الرابع ، القاهرة ، دارالكاتب العربى للطباعة والنشر .

— السباعى بيومى :

— تاريخ الأدب العربى ، الجزء الثالث فى العصر العباسى بالمشرق ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٨ م
— تاريخ القصة والنقد فى الأدب العربى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٦ م

— الشكعة :

مصطفى

- الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ، بيروت ،
دارالعلم للملايين ، الطبعة الثالثة ١٩٧٥
— الأدب فى موكب الحضارة
الإسلامية (كتاب النثر) ، بيروت دارالكتاب
اللبنانى ، الطبعة الثانية ١٩٧٤
— بديع الزمان الهمذانى — رائد القصة العربية
والمقالة الصحفية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة
الحديثة ١٩٥٩ م

— شوقى ضيف :

- العصر الجاهلى ، القاهرة ، دارالمعارف ،
الطبعة السابعة ١٩٧٧ م .
— عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية —
العراق — إيران) القاهرة — دارالمعارف ١٩٨٠ م
— الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، القاهرة ،
دارالمعارف ، الطبعة السادسة ١٩٧١
— المقامة ، القاهرة ، دارالمعارف ، الطبعة
الثالثة ١٩٧٣

— عبد الجواد الجومرد :

- الأصمعى حياته وآثاره ، بيروت ، مطابع دار
الكشاف ١٩٥٥

— عبد الرحمن بدوى :

- مؤلفات الغزالى ، الكويت ، وكالة
المطبوعات ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م

— عبد الرحمن ياغى :

- رأى فى المقامات ، بيروت ، المكتب
التجارى ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م .

— عبد الملك مرتاض :

— انقصة في الأدب العربي القديم ، الجزائر ،
دار ومكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨ هـ

— عبد النافع طليمات :

— أهل الكدية أبطال المصامات في الأدب
العربي ، حمص ، دار ابن الوليد ، مطابع الفجر
الحديثة ١٩٥٧ م .

— عمر فروخ :

— تاريخ الأدب العربي (الجزء الثاني —
عصر العباسية) بيروت ، دار العلم للملايين ،
الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
— الرسائل والمقامات ، بيروت ، مكتبة
منيرة ، ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م .

فيكتور الكك :

— بديعات الزمان (بحث تاريخي تحليلي في
مقامات الهمداني) مقدمة فؤاد أفرام البستاني ،
بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١ م .

— مارون عبود :

— بديع الزمان الهمداني ، دار المعارف بمصر ،
الطبعة الثالثة ١٩٧١ م

— محمد بن قاييت :

محمد الصادق عفيفي
— الأدب المغربي ، بيروت ، دار الكتاب
البناني ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

محمد رضوان الداية :

— تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، بيروت ،
دار الأنوار الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

— محمد كرد علي :

— رسائل البلغاء ، القاهرة ، لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، الطبعة
الثالثة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م
— كنوز الأجداد ، دمشق ، مطبعة
الترقي ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م .

— محمد مصطفى رضوان :

— العلامة اللغوي ابن فارس الرازي ، دار
المعارف بمصر ١٩٧١ م

— محمد نبيه حجاب :

— بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة
تحليلية نقدية لتطور الأساليب) ، القاهرة ،
المطبعة الفنية الحديثه ، الطبعة
الأولى ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

— محمود رزق سليم :

— عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
والأدبي (المجلد السادس في النثر الفني) ،
النقاهرة ، مكتبة الآداب
ومطبعها ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

— محمود غناوى الزهيرى :

— الأدب فى ظل بنى بويه ، القاهرة ، مطبعة
الأمانة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م

— موسى سليمان :

— الأدب القصصى عند العرب ، بيروت ،
مكتبة المدرسة ، ودار الكاتب اللبناني ، طبعة
رابعة ١٩٦٩ م

— يَحْكِي عن العرب . بيروت . مكتبة المدريسة .
ودار الكتب اللبنانية :

ج ١ : طبعة رابعة ١٩٦٧ د

ج ٢ : طبعة ثانية ١٩٦٢ م

— يوسف نور عوض :

— فن المقامات بين المشرق والمغرب . بيروت .
دار القلم الطبعة الأولى ١٩٧٩ د

رابعاً : المراجع الأجنبية :

١ - المعربة :

- بروكلمان :

كارل

- الأجزاء الستة الأولى بتعريب عبد الحليم
النجار ورمضان عبد التواب والسيد يعقوب بكر ،
القاهرة - دار المعارف ١٩٦٨ - ١٩٧٥ م

- فؤاد سزكين :

- تاريخ التراث العربي ، نقله إلى العربية
الدكتور فهمي أبو الفضل وراجعه الدكتور محمود
فهمي حجازي ، القاهرة الهيئة
المصرية ١٩٧١ م .

ب - غير المعربة :

بهار :

محمد تقى (ملك الشعراء) :

- سبك شناسی - تهران ١٣٣١ هـ

- فارس ابراهيمى حريرى :

- مقامه نوبى در ادبيات فارسى وتأثير مقامات

عربى در آن

انتشارات دانشگاه تهران ١٣٤٦

- Brockelmann: Geschichte Der Arabischen Litteratur, Leiden, E. Brill 1937.
- Chenary, Thomas: The Assemblies of Hariry, London, 1867.
- Huart: Les Séances D'Ibn Uaqiya, Paris, Imprimerie Nationale, 1908.

The Encyclopaedia of Islam (Makama)

مطالب الكتاب

تقديم بقلم أستاذنا الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة

صفحة	توطئة
أ- ز	
٢٢-٧	الفصل الأول :
٤١-٢٣	الفصل الثاني :
٧٣: ٤٣	الفصل الثالث :
٥١-٤٤	١- ابن دريد
٧٣-٥٢	٢- بديع الزمان الهمذاني
٧٣-٦٩	الخوارزمي - ابن نباتة
١١٨-٧٥	المقامات بعد البديع
٩٢-٧٧	أ- في المشرق :
٧٧	ابن بطلان
٧٩	أبو العلاء المعري
٨١	ابن نايقا
٩١	أبو الهيجاء الأصفهاني ، شهنيرور
١١٨-٩٣	ب- في المغرب والأندلس
٩٣	ابن شهيد الأندلسي
٩٥	ابن فتوح
٩٦	ابن شرف القيرواني
١٠٢	أبو عبد الله بن مسلم
١٠٤	ابن الشهيد التجيبي
١١٣	ابن مالك القرطبي
١١٦	ابن المعلم
١١٨	محمد بن الحسن الطوسي
١١٩	أهم المصادر

